مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الحادي عشر - السنة السادسة. محرم ١٤٤٣هـ/ أغسطس ٢٠٢١م

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]

موضوعات العدد:

- الهدايات القرآنية في قوله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)
  د. محمد علي جميل المطري   د. يوسف محمد عبده العواضي
- المحفوظات الواردة في سورة الحجر
  د. حامد بن عدنان الأنصاري
- محبطات العمل من خلال سورة محمد صلى الله عليه وسلم «دراسة موضوعية»
  د. نذيرة بنت سعيد الوادعي
- ملابسات النزول وأثرها في التوجيه البلاغي لآيات القرآن (سورة الجمعة أنموذجًا)
  د. محمد بن عبد العزيز بن عمر نصيف
- رفع الوهم وتصحيح الفهم بالفعل «حسب» وتصاريفه في القرآن
  د. خلود محمد أمين محمود الحوراني
- تقرير عن رسالة علمية بعنوان: (استعمال الصور في تفسير القرآن الكريم) تأصيلًا وتقويمًا
  للباحث: د. عبد الله بن عمر بن أحمد العمر
- تقرير عن مشروع علمي بعنوان:
  مؤسسة النبأ العظيم بمكة المكرمة
- تقرير عن مؤتمر علمي بعنوان:
  مشكل القرآن والحديث في التراث والدراسات المعاصرة

مجلة تدبر

مُلابسات النزول وأثرها في التوجيه البلاغي لآيات القرآن
سورة الجمعة أنموذجًا

د. محمد بن عبد العزيز بن عمر نصيف

الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

قدم للنشر في: ١٤٤٢/٧/١١
قبل للنشر في: ١٤٤٢/٨/١٧
نشر في: ١٤٤٣/١/١

- حصل على درجة الماجستير من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة بأطروحة: «علم المعاني في تفسير روح البيان للبروسوي»
- كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة في قسم البلاغة والأدب.
- وحصل على درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة قسم البلاغة والأدب، بأطروحة: «شرح الجوهر المكنون لعبد الرحمن الأخضري دراسة وتحقيقًا»

بعض النتاج العلمي:

١/ توظيف الدلالات الأصلية لاستخراج النكات البلاغية عند النورسي في تفسيره -النكرة والمعرفة أنموذجًا-.

٢/ تعقبات الآلوسي على توجيهات الرازي للمتشابه اللفظي في آيات الأمر بدخول القرية -عرض ومناقشة-.

٣/ علاقة مائة المعاني لابن الشحنة بتلخيص المفتاح للقزويني- دراسة في تأريخ البلاغة.

٤/ توظيف العلامة ابن عاشور لمصطلحات القافية في دراسة الفاصلة القرآنية.

٥/ المنهجية في علوم العربية.

٦/ زبدة البلاغة.

٧/ بطاقات التعريف لسور المصحف الشريف -في علوم القرآن-.

مجلة تدبر

مُسْتَخْلَصُ البَحْث

يركز هذا البحث علىٰ ملابسات النزول التي تكتنف الآيات والسور القرآنية سعيًا إلىٰ إبراز أثر معرفة تلك الملابسات في التوجيه البلاغي لآيات القرآن الكريم، وقد اختار الباحث سورة الجمعة أنموذجا للتطبيق لاعتبارات من أهمها تنوع ملابسات هذه السورة ، وقد خرج بنكات متعددة لم يشر إليها السابقون مع إفادته مما كتبوه في إظهار بلاغة السورة الكريمة، كما خرج البحث بنتائج وتوصياتٍ لعلها تساعد علىٰ تطوير البحث البلاغي القرآني، والله الموفق.

الكلمات المفتاحية:

ملابسات – سورة الجمعة– التوجيه البلاغي– أسباب النزول–

The General Context of Revelation and Its Effect on the Rhetorical Analysis of the Quranic Verses

–The Sura of Al-Jum'ah as a Case Study-

Dr. Muhammad bin Abdulaziz bin Omar Naseef
Associate Professor at the Islamic University of Madinah

Abstract

This research focused on the general context of revelation for the verses and Suras of the Quran in an effort to highlight the effect of finding out about this context on the rhetorical analysis of the Quranic verses. The researcher chose the Sura of Al-Jum'ah as a case study for several considerations, the most important of which is its highly diverse context. He also came up with numerous nuanced points that previous scholars did not mention, although he depended on their works to demonstrate the rhetoric aspects of the Noble Sura. The research reached a number of findings and made several recommendations for improving the Quranic rhetorical research.

Keywords: Context, Sura, Al-Jum'ah, Rhetorical, Analysis, Reasons, Revelation,

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا الأمين، أما بعد:

فمن المعلوم أن البلاغة تَرجع إلىٰ مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال، ولذلك كان من المهم لمن أراد أن يتذوق بلاغةَ الكلام أن يعرفَ الحالَ التي قيل فيها ذلك الكلام، وهذه المعرفة بدَورها تُعين علىٰ كشف أسرار الكلام وإدراك بلاغته، ومِن هنا كان مِن أهم المهمات للمعتني بدراسة بلاغة القرآن أن يعرف الملابِساتِ التي احتفت بنزول السورة أو الآيات، وهل نزلت بمكة أو بالمدينة؟ وفي أي مراحل العهد المكي أو المدني نزلت؟ وكيف كان حال الصحابة وقت نزولها؟ إلىٰ غير ذلك مما يعطي الباحثَ في بلاغة القرآن تصوُّرًا دقيقًا للحال التي نزلت فيها الآيات، وإن كثيرًا من الآيات القرآنية لا تظهر بلاغتُها علىٰ الوجه الأكمل إلا بمعرفة هذه الملابسات بدِقَّة، ومِن هنا كان هذا البحثُ ساعيًا إلىٰ إظهار أهمية العناية بمسألة ملابسات النزول مع إثبات ذلك عمليًّا عن طريق التطبيق علىٰ سورة كاملة من القرآن الكريم، وقد دفعني إلىٰ كتابة هذا البحث أمور، منها:

١/ قلةُ مَن اعتنىٰ بهذا الأمر من البلاغيِّين.

٢/ كثرةُ الخطأ في هذا الباب ممن تعرض له بسبب الاعتماد علىٰ أدلة غير قوية في معرفة هذه الملابسات[(١)].

(١) فبعض هذه الكتب يعتمد علىٰ الذوق في المقام الأول لمعرفة وقت النزول، بل قد تَرُدُّ الروايات الصحيحة من أجل هذا الذوق، ومنهم من يعتمد علىٰ روايات فيها ضعف في السند أو نكارة في =

٣/ الفائدة العظيمة التي تتهيأ لدارس بلاغة القرآن إذا تنبَّه إلىٰ هذا الجانب الذي لم يُعطَ حقَّه مِن النظر، وهذا ما يسعىٰ البحثُ إلىٰ إظهاره.

وقد جاء البحث في تمهيد ومبحثين وخاتمة؛ ففي التمهيد بيَّنتُ المرادَ بملابِسات النزول كما بيَّنت أهميتها لدارس البلاغة القرآنية، كما بيَّنت سببَ اختياري للتطبيق علىٰ سورة الجمعة دون غيرها، وأشرت إلىٰ الدراسات السابقة، وفي المبحث الأول تحدثت عن ملابسات نزول سورة الجمعة، ثم كان المبحث الثاني في الأسرار البلاغية لسورة الجمعة في ضوء ملابسات نزولها، وقد قسمتُ هذا المبحث إلىٰ أربعة مطالب بِناءً علىٰ تقسيم السورة إلىٰ مقاطع، ثم كانت الخاتمة في أهم النتائج مع بعض التوصيات، والله أعلم.

وصلىٰ علىٰ نبينا وآله وصحبه وسلم

= المتن، وانظر في هذا الموضوع ومعرفة الخطوات العلمية الصحيحة للوصول إلىٰ ملابسات النزول كتاب: «علم تأريخ نزول آيات القرآن وسوره».

التمهيد

«ملابسات النزول» مصطلح لم يكن -في حدود اطلاعي- معروفًا بهذا الاسم عند السابقين، وإن كان معناه حاضرًا في أذهانهم كما يدل عليه قول علي بن أبي طالب ﷺ: «سَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُ بِلَيْلٍ نَزَلَتْ أَمْ بِنَهَارٍ؟ فِي سَهْلٍ أَمْ فِي جَبَلٍ؟»(١)، وقول ابن مسعود ﷺ: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ؟ وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ؟ وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(٢).

وقد ظهر هذا المصطلح في عصرنا عند عدد من الباحثين، لكنه جاء في عَرض الكلام، ولم أجد من عرَّفه(٣)، لكنني مع ذلك وجدتني مضطرًّا إلىٰ استخدامه في بحثي لدقَّة تعبيره عن مرادي، مع كونه شاملًا يَعُمُّ أسبابَ النزول وزمانه ومكانه وغير ذلك مما سيتضح قريبًا عن طريق تعريف «ملابسات النزول» لغة واصطلاحًا.

(١) رواه ابن سعد في الطبقات: (٢/ ٢٥٧)، وإسناده صحيح، انظر: المقدمات الأساسية في علوم القرآن: (٣١٦).

(٢) رواه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (١١٥) - (٢٤٦٣) بنحوه.

(٣) انظر علىٰ سبيل المثال: مفاتيح التعامل مع القرآن: (١٤١)، التحرير في أصول التفسير: (٣٠١).

«ملابسات النزول» لغة:

الملابِسات: جمع ملابِسة، وهي مشتق مِن (لابَس الأمر): خالطه[١]، أما النزول فهو في اللغة مصدر (نزَل): انحط من علو[٢].

«ملابسات النزول» اصطلاحًا:

المراد بالنزول هنا في سياق الدراسات القرآنية هو نزولُ القرآن الكريم من رب العالمين علىٰ قلب سيد المرسلين بواسطة جبريل الأمين -عليهما أفضل صلاة وأتم تسليم-؛ فـ: (ال) فيه للعهد العلمي.

وعليه يمكن أن يقال في تعريف «مُلابِسات النزول»: هو ما لابَس نزولَ السورة أو نزول بعضها من أمور، فالتقييد بـ: «أو بعضها» إخراجٌ لسور كثيرة لم تنزل دفعة واحدة؛ فيكون لبعضها ملابِسات تختلف عن ملابسات بعضها الآخر، والقيد: «من أمور» يشمل زمان النزول الدقيق كتحديد يوم النزول أو ساعته، كما يشمل المكان الذي نزلت فيه السورة؛ كأن يكون قد نزل في المسجد أو في الغار، كما يشمل الأحكام الفقهية التي شُرِعَتْ قريبًا من وقت النزول وإن لم تكن سببًا له، إلىٰ غير ذلك مما سيظهر -بإذن الله- في هذا البحث.

إنَّ معرفة «ملابِسات النزول» مهمَّةٌ للغاية لدارس البلاغة القرآنية؛ لأن البلاغةَ -كما مرَّ- ترجع إلىٰ مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال؛ فلابد لمن أراد أن يدرك بلاغةَ الكلام أو مطابقته لمقتضىٰ الحال أن يحيط علمًا بالحال التي قيل فيها الكلام[٣]، لذا كان من الضروري لدارس البلاغة القرآنية أن يعرف كل ما يُجَلِّي الحالَ التي

---

(١) القاموس المحيط (ل ب س)، تاج العروس (ل ب س).

(٢) تاج العروس (ن ز ل).

(٣) والحال في القرآن هو ما أطلقتُ عليه في هذا البحث «ملابِسات النزول».

نزلت فيها الآية أو السورة، ثم يوظِّف تلك المعرفة لاستخراج النكات البلاغية فيما يريد دراسته، وقد سَعيتُ لجعل البحث تطبيقًا علىٰ سورة كاملة من القرآن لإثبات أهمية معرفة الملابسات من جهة، ولإظهار غزارة المعاني القرآنية المبنية علىٰ معرفة هذه الملابسات من الجهة الأخرىٰ، وقد كان اختياري لسورة الجمعة لما يلي:

١/ ترجيح نزولها دفعة واحدة -كما سيأتي-، مما يجعل تحديد ملابسات نزولها أوثق من السور التي نزلت آياتُها متفرقة.

٢/ ارتباط آخرها بحدَث مهمٍّ ينعكس علىٰ فَهم السورة كلها كما سيظهر في ثنايا البحث.

٣/ كثرة ملابِسات نزولها مما يثري البحث.

واللهَ -تعالىٰ- أسأل أن يعينني في الوصول إلىٰ ما سعيتُ إليه، وألا يكلني إلىٰ نفسي طرفةَ عين.

◆ الدراسات السابقة:

لا شك أن الدراسات السابقة ذات الصلة بسورة الجمعة كثيرة ما بين أبحاثٍ قرآنية أو دراسات بلاغية، فضلًا عن التفاسير الكثيرة المَعنية بالبلاغة، لذلك آثرت الاكتفاء بالإشارة إلىٰ ما يتصل بحثي بشكل مباشر مما خصص سورة الجمعة بالدراسة من جهة بلاغية أو سياقية، أو عُنِيَ -ولو جزئيًّا- بـ«ملابسات النزول» من ناحية بلاغية، وقد وجدتُ في ذلك دراستين[(١)]:

(١) اكتفيت بهما لتقاطعها الظاهر مع بحثي، وإلا فالدراسات البلاغية عن السورة كثيرة، لكنَّ استقصاءها يطيل البحث دون فائدة.

١/ «وحدة النَّسق في سورة الجمعة»، إعداد الباحثَيْن: د. محمد أحمد الجمل، ود. محمد رضا الحوري، الأستاذَين المساعدين بكلية الشريعة في جامعة اليرموك، وهي دراسة منشورة عُنيت ببيان وحدة موضوع سورة الجمعة بالنظر إلىٰ مقاطعها، ولم ترد فيها الإشارة إلىٰ «ملابسات النزول»، وإنما وردت إشارة قصيرة إلىٰ (تأريخ السورة) جاوزت الصفحة الواحدة بعدة أسطر، ولم يتم توظيفها بعد ذلك في شيء من البحث، والله أعلم.

٢/ «غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول»، تأليف الدكتور: محمد إبراهيم شادي، وهو كتاب مطبوع تكلم بلاغِيًّا عن الآيات التي صح فيها سبب نزول، وكان مما تعرض له آيات سورة الجمعة فحلَّلها في ضوء سبب النزول، لكن بحثه يختلف عن بحثي من عدة جهات:

١- اقتصر تحليله علىٰ آخر ثلاث آيات في السورة، بينما شمل هذا البحث تحليل السورة كاملة.

٢- اقتصرت دراسته علىٰ سبب النزول الصحيح المتعلق بالسورة، ولم يفد من «ملابسات النزول» مع صحتها وتعددها كما سيتبين في هذا البحث -بإذن الله-.

٣- كان تحليله موجزًا[(١)]، لم يقف مع كل كلمات الآيات التي تناولها، بينما حاولتُ الوقوفَ قدرَ الاستطاعة مع كل كلمة في السورة مع السعي إلىٰ ربطها بمقامات النزول.

وبهذا يتضح الفرق بين هذا البحث والدراسات السابقة، وبالله التوفيق، هو حسبي ونعم الوكيل.

---

(١) في صفحات قليلة، انظر: غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول: (٤٣٢- ٤٣٥).

المبحث الأول:

ملابسات نزول سورة الجمعة

لابَس نزولَ هذه السورة عدةُ أمور؛ أُلخِّصُها في أربع نقاط:

◆ أولًا: مدنية السورة:

هذه السورة مدنية، بل حُكي الاتفاق علىٰ ذلك، وحُكِم علىٰ من قال بمكِّيَّتها بالخطأ[(١)]، وللسور المدنية عمومًا حال خاصة، وهي حال إقامة الدولة الإسلامية، والمكلَّفون بهذه المهمة العظيمة -ويقودُهم سيدُ ولد آدم ﷺ- هم الصحابةُ الكرام الذين تربَّىٰ كثيرٌ منهم علىٰ القرآن في العهد المكِّي[(٢)] بما تحملُه الآياتُ المكية من ترسيخ العقيدة، وذِكر الأصول الكلية لهذا الدِّين العظيم، فحالُهم -بما فيها من قوة إيمان، وتصورٍ لأصول هذا الدين، واستعدادٍ لإقامة دين الله في الأرض- تقتضي إنزالَ الأحكام الشرعية التفصيلية مع عدم غياب الخطاب الإيماني عنهم؛ خاصةً إن حصل من بعضهم -رضوان الله عليهم أجمعين- ما يحتاجون معه إلىٰ شيءٍ من

---

(١) انظر: المكي والمدني من السور والآيات من أول سورة الكهف إلىٰ آخر سورة الناس، للدكتور: محمد بن عبد العزيز الفالح: (٤٠٤-٤٠٦).

(٢) يدخل في هذا الأنصار، فقد جاءهم مصعب وابن أم مكتوم وكانا يُقرآنهما القرآن، كما ثبت في «صحيح البخاري» (٣٩٥٢)، (٤٩٤١)، وقال البراء بن عازب ﷺ في نهاية ذكره للقصة: «فَمَا جَاءَ [أي: رسول الله ﷺ] حَتَّىٰ قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١] فِي سُوَرٍ مِثْلِهَا»، وفي لفظ: «فَمَا قَدِمَ حَتَّىٰ قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١] فِي سُوَرٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ».

التذكير بتلك المعاني الإيمانية، كما هو الحال في هذه السورة(١).

ثانيًا: تأريخ نزول السورة:

إن أقوىٰ ما يمكن أن يساعد علىٰ تحديد تأريخ دقيقٍ لنزول هذه السورة هو ما جاء في «الصحيحين» -وهذا لفظ البخاري- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ حَتَّىٰ سَأَلَ ثَلاَثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَىٰ سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «**لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ -أَوْ رَجُلٌ- مِنْ هَؤُلَاءِ**»، ولفظ مسلم: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ»(٢).

ومِن أوسع مَن تكلم علىٰ تأريخ نزول السورة اعتمادًا علىٰ هذا الحديث -فيما وقفتُ عليه- ابنُ عاشورٍ ﵀، في مقدمة كلامه علىٰ سورة الجمعة، حيث قال: «... وَيَظْهَرُ أَنَّهَا نَزَلَتْ سَنَةَ سِتٍّ(٣) وَهِيَ سَنَةُ خَيْبَرَ(٤)، فَظَاهِرُ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا- أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرَ؛ لِأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ

---

(١) سيتضح هذا عند الحديث عن سبب نزول السورة.

(٢) البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٣١) - (٢٥٤٦).

(٣) كون السورة نزلت بعد إسلام أبي هريرة يقتضي أنها نزلت بعد غزوة خيبر، ولا يلزم منه أنها نزلت في نفس العام، فقد تكون نزلت بعد ذلك، ولذلك فالقول أنها نزلت بين الحديبيةِ -وقد كانت خيبرُ تاليةً لها- وتبوكٍ أدقُّ، انظر: النظم الفني للقرآن: (٣١٤)، وهذا لا يؤثر في هذا البحث؛ إذ المهم أن الأحداث المذكورة نزلت قبل نزول السورة، والله أعلم.

(٤) بين أهل السير خلافٌ في كون خيبر في السنة السادسة أو السابعة، وهو خلاف مرده في الحقيقة إلىٰ اصطلاح عد السنوات الهجرية، انظر تحرير ذلك في: السيرة النبوية الصحيحة، لأكرم العمري: (٣٦٤).

أَسْلَمَ يَوْمَ خَيْبَرَ(١). وَظَاهِرُهُ أَنَّهَا نَزَلَتْ دَفْعَةً وَاحِدَةً، فَتَكُونُ قَضِيَّةُ وُرُودِ الْعِيرِ مِنَ الشَّامِ هِيَ سَبَبَ نُزُولِ السُّورَةِ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ.

وَكَانَ فَرْضُ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ مُتَقَدِّمًا عَلَىٰ وَقت نزُول هَذِه السُّورَةِ، فَإِن النبي ﷺ فَرَضَهَا فِي خُطْبَةٍ خَطَبَ بِهَا لِلنَّاسِ، وَصَلَّاهَا فِي أَوَّلِ يَوْمِ جُمُعَةٍ بَعْدَ يَوْمِ الْهِجْرَةِ فِي دَارٍ لِبَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَثَبَتَ أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ صَلَّوْهَا قَبْلَ قُدُومِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ كَمَا سَيَأْتِي. فَكَانَ فَرْضُهَا ثَابِتًا بِالسُّنَّةِ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَمَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الْجُمُعَة: ٩] وَرَدَ مَوْرِدَ التَّأْكِيدِ لِحُضُورِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَتَرْكِ الْبَيْعِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الِانْصِرَافِ عِنْدَ الصَّلَاةِ قَبْلَ تَمَامِهَا، كَمَا سَيَأْتِي... وَظَاهِرُ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أُنْزِلَتْ دفْعَةً وَاحِدَةً غَيْرَ مُنَجَّمَةٍ»(٢).

وبناءً علىٰ هذا تكون السورة كلها قد نزلت بعد خيبر(٣)، وعندما تُذكر خيبر

(١) انظر في إسلامه وهجرته عامَ خيبر: الاستيعاب: (٢/ ٤٧٥)، أسد الغابة: (٢/ ٢٨)، الإصابة: (٤/ ٣١٦).

(٢) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٠٥)، وممن قال بنزولها دفعة واحدة محمد عزة دروزة في تفسيره المعتني كثيرًا بتأريخ نزول السور وملابساتها، انظر: التفسير الحديث: (٧/ ٣٣١)، وانظر خلافًا حول نزولها دفعة واحدة في: فتح الباري: (٨/ ٦٤٢)، والرد عليه في: عمدة القاري: (١٩/ ٢٣٥)، وقد سِرتُ علىٰ ظاهر الرواية معتمدًا كلام العيني، وابن عاشور، ودروزة مع كون قرائن السياق والنظم متناسبة معه، وعلىٰ القول الآخر بأنها لم تنزل دفعة واحدة وأن آخرها نازلٌ قبل أولها يظل التناسب بين آياتها ظاهرًا، ويكون نزول أولها المتأخر زمانيًّا متناسبًا مع ما ذكر في هذا البحث من ملابسات، وصالحًا للتذكير بالخطأ السابق زمانيًّا والذي نزل لأجله آخر السورة، والله أعلم.

(٣) خلافًا لمن جعلها في وقت قوة اليهود في المدينة غافلًا عن تأريخ إسلام أبي هريرة، انظر: التفسير الحديث: (٧/ ٣٢٨، ٣٣١).

نستحضر أمورًا متعددة احتفَّت بها؛ فمن ذلك:

١ – ظهور غدر اليهود بجلاء قبل الغزوة، بل كان ذلك الغدر من أسبابها، كما أن محاولة قتل النبي ﷺ بشاة مسمومة وقعت: «لما فُتحت خيبر»[١].

٢– عظمة الانتصار في خيبر، وكثرة الغنائم، وسهولة الحصول عليها، بل قد ذُكر أنها من أكثر الغزوات غنائم[٢]، وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما قوله: «ما شبعنا حتىٰ فُتحت خيبر»[٣]، وقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ قُلْنَا: الآنَ نَشْبَعُ مِنَ التَّمْرِ»[٤].

٣– وقعت خيبر بعد الحديبية، أي: بعد الصلح والاستقرار للمسلمين، وهو صلح حوىٰ في طيَّاته نِعمًا كبيرة علىٰ المسلمين.

٤ – احتفَّت بالغزوة أحكام شرعية متعددة؛ فمن تلك الأحكام[٥]:

تحريم ربا الفضل، وتحريم المُتعة، وتحريم الحُمر الأهلية، ولعل هذا يشعر أن الدين اقترب من الاكتمال، وزادت المِنَّة علىٰ المؤمنين به.

٥– قدوم مهاجري الحبشة إلىٰ المدينة[٦]، وهذا الحدَث –بما فيه من اجتماع شَمْل المسلمين وزيادة قُوَّتِهِمْ في المدينة– يُعدُّ حدَثًا سعيدًا جدًّا، بل قد ورد أن

---

(١) البخاري (٣١٦٩)، (٥٧٧٧)، ومسلم (٤٥) (٢١٩٠)، وانظر: سيرة ابن هشام: (٣/ ٣٦٧).

(٢) تنظر: السيرة النبوية، لابن هشام: (٣/ ٣٨٠ –٣٨٣)، والسيرة النبوية الصحيحة، للدكتور أكرم العمري: (١/ ٣١٨).

(٣) البخاري: (٤٢٤٣).

(٤) البخاري: (٤٢٤٢).

(٥) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام: (٣/ ٦٠ –٦١).

(٦) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام: (٤/ ٥ فما بعدها).

النبي ﷺ قال: «ما أدري أنا بقدوم جعفرَ أسر، أو بفتح خيبر؟»[(١)].

٦- إرسال الرسائل إلىٰ الملوك[(٢)]، وهو مما يؤذن باستقرار دولة الإسلام وانتشار الدين وقوته.

٧- الوقْع الكبير لخيبر علىٰ قلوب القبائل التي لم تكن أسلمت بعد[(٣)]، وكان خاتمة ذلك ما حدث بعد خيبر بسنتين تقريبًا من وفود القبائل علىٰ رسول الله ﷺ[(٤)].

وبالجملة؛ فإن كلَّ ما تلا الحديبيةَ -ومنه غزوة خيبر- حتىٰ وفاة النبي ﷺ كان مِصداقًا للآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد كان لهذه الملابسات المتعددة أثره في نظم السورة والكلام عليها بلاغيًّا، وهو أهم ما يسعىٰ هذا البحث إلىٰ إظهاره.

◆ ثالثًا: ترتيب نزول السورة بين السور:

مما يُستأنس به في تأريخ نزول السورة ما ورد أنها التاسعة بعد المائة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد[(٥)] ﷺ، حيث نزلت بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن[(٦)]،

---

(١) انظر في تخريجه مطولًا والميل إلىٰ ثبوته: السلسلة الصحيحة (٢٦٥٧).

(٢) وهو حدث قريب زمانيًّا من خيبر وإن لم يكن مرتبطًا بها بشكل مباشر، انظر: الطبقات الكبرىٰ، لابن سعد: (١/ ١٩٨)، والسيرة النبوية، لابن هشام: (٤/ ٢٦٢).

(٣) تنظر: السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة: (٤٣٤).

(٤) انظر تفصيل الكلام في ذلك في: السيرة النبوية الصحيحة: (٦٠٥ فما بعدها).

(٥) جابر بن زيد الأزدي مولاهم البصري، تابعي شهير، انظر ترجمته في: الطبقات الكبرىٰ: (٧/ ١٣٣ فما بعدها)، وفيه: «لَوْ نَزَلَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ عِنْدَ قَوْلِ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ لأَوْسَعَهُمْ عَمًّا فِي كِتَابِ اللهِ عِلْمًا».

(٦) انظر البيان في عد آي القرآن، للداني: (١٣٥ فما بعدها)، وهذه الرواية مما اختلف في ثبوتها مع =

فهذا يؤيد ما سبق من ترجيح تأخر نزولها[1]؛ إذ لم ينزل بعدها حسب هذه الرواية إلا سور قليلة جدًّا.

◆ رابعًا: سبب نزول السورة:

ثبت عن جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَتْ عِيرٌ[2] تَحْمِلُ طَعَامًا، فَالْتَفَتُوا إِلَيْهَا حَتَّىٰ مَا بَقِيَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾»[3]، مما يدل أن آخر السورة نزل لتصحيح خطأ صدر من الصحابة، مع ملاحظة طبيعة هذا الخطأ مِن كونه مِن أهل فضل وسابقة -رضوان الله عليهم أجمعين-، وكونه غير متعمَّد من جهة ثانية، كما أنهم لم يُعرفوا بمثله ولم يتكرر منهم[4].

ومع أن السبب الوارد يتعلق بنزول آخر آيات السورة إلا أن ما سبق من نزولها

= وجود مخالفات متعددة فيها لما هو أصح منها، وقد حسنها بشاهدها بعض الباحثين، انظر: المكي والمدني -دراسة تأصيلية نقدية من أول القرآن الكريم إلىٰ نهاية سورة الإسراء- للدكتور عبد الرزاق حسين أحمد: (١/ ٢٧٣)، ولهذا الخلاف في ثبوتها لم أعتمدها وإنما ذكرتها استئناسًا، هذا وقد وقع خلل واضطراب في عد السور وفق هذه الرواية في كتب التفسير التي اهتمت بترتيب نزول السور، لكن البحث وموضوعه لا يتَّسعان لبيان ما حدث عندهم من خلل.

(١) انظر ما سبق قريبًا في هذا البحث من الحديث عن تأريخ نزول السورة (ص: ٢٠٨ فما بعدها).

(٢) جاء أن الذي قدم بالتجارة دحية بن خليفة الكلبي، وقيل: إن ذلك قبل أن يُسلم، مما يقوي القول بأن آخر السورة نزل مبكرًا، لكن روايات كون ذلك قبل إسلامه لم تثبت، انظر في الإشارة إلىٰ ضعفها: تفسير ابن كثير: (٧/ ٢٧٩)، وانظر إلىٰ ما ورد في ذلك من مرويات في: الدر المنثور: (٨/ ١٦٥- ١٦٦)، موسوعة التفسير بالمأثور: (٢١/ ٦٤٩- ٦٥٠).

(٣) البخاري: (٩٣٦)، ومسلم (٣٧) (٨٦٣).

(٤) أما ما روي من تكرار الحادثة فلم يثبت، انظر ما سيأتي في البحث (ص: ٢٥٢ هامش ٤).

دفعة واحدة بعد خيبر يعين على تأريخ تقريبي لنزول السورة كلها، مع ملاحظة أن «الغرض الأول من السورة التحريضُ على شهود الجمعة، والنهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها، وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصًا على الابتياع من عيرٍ وردت المدينة وقت حضورهم لصلاة الجمعة»[1]، والله أعلم.

◆ ◆ ◆

(١) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٠٦)، ويلاحظ أن ابن عاشور ﷺ عبَّر بالزجر، والتعبير بالعتاب اللطيف أليق بنظم آيات السورة، خاصة آخر آية فيها، انظر ما سيأتي من التنبيه على ذلك: (٢٥٢هامش ٣، ٢٥٤ هامش ١).

المبحث الثاني:

الأسرار البلاغية لسورة الجمعة في ضوء ملابسات نزولها

بعد أن عرفنا مدنيَّة السورة، وتأخُّر نزولها في العهد المدني بعد غزوة خيبر، وأنها نزلت دفعة واحدة لسبب معيَّن -وهو ما وقع من الانفضاض إلىٰ العير- فقد آنَ الأوان للشروع في المقصود مِن هذا البحث مِن التحليل البلاغي للآيات المبني علىٰ تلك الملابسات(١)، وقد رأيتُ تقسيمَ التحليل البلاغي للسورة إلىٰ أربعة مطالب مبنية علىٰ الموضوعات الجزئية لآيات السورة الكريمة؛ لأن ذلك أدعىٰ لاستحضار المقام الخاص بكل موضوع، فكانت المطالب علىٰ النحو الآتي:

المطلب الأول: براعة الافتتاح.

المطلب الثاني: الامتنان ببعثة سيد الأنام ﷺ.

المطلب الثالث: التعريض باليهود.

المطلب الرابع: أحكام صلاة الجمعة، والتنبيه علىٰ ما وقع فيها.

(١) تمتلئ كتب التفسير البلاغي بتحليلات قيمة نفيسة لآيات سورة الجمعة، لكن هذا البحث ينصبُّ إلىٰ تلك التحليلات المبنية علىٰ ملابسات النزول، لذلك أعرضت عن جُلِّ تلك التحليلات مع قيمتها، واكتفيت بما يخدم البحث ويثريه.

المطلب الأول:
براعة الافتتاح

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾.

في افتتاح السورة بالتسبيح براعة استهلال؛ لأن مقصودَها -كما مرَّ- هو التحذير من التخلف عن صلاة الجمعة والأمر بترك ما يشغل عنها في وقت أدائها(١)، كما أن مِن أعظم مقاصد يوم الجمعة ذِكر الله -والتسبيحُ مِن الذِّكر-؛ فقد قال تعالىٰ في آخر هذه السورة الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فسمىٰ الخطبةَ ذِكرًا لله(٢)، وقال في آخر السورة أيضًا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾. فالذكر مطلوب كذلك بعد الفراغ من الصلاة، وما الأمر بالإكثار من الصلاة علىٰ النبي ﷺ يوم الجمعة وليلتها، ولا غيرها مِن السنن الواردة في هذا اليوم العظيم - إلا دليل علىٰ أهمية الذِّكر فيه(٣)، وهذا كله يتناسب مع افتتاحها بالتسبيح، ومما ينبغي أن يلاحَظ مع كل هذا أن السورة مدنيَّة تربِّي الأمة علىٰ معالي الأمور، وتجدِّد الإيمانَ مع عنايتها بالأحكام، وقد بدأت قبل الأحكام بما يجدِّد الإيمان لمَا سبقت الإشارة إليه من سبب نزول آخرها(٤).

---

(١) انظر ما سبق: (٢١٣).

(٢) سيأتي مزيد بيان لسر هذا التعبير في موضعه من البحث -بإذن الله-.

(٣) انظر للتوسع فيما يستحب من الذِّكر يوم الجمعة: زاد المعاد: (١/ ٣٦٣ فما بعدها).

(٤) انظر ما سبق: (٢١٢).

ثم إن التسبيح بما فيه من معنىٰ التنزيه والبُعد[1] أنسب بالمقام من الحمد -مثلًا-، خاصةً أن من مقامات التسبيح التعجب من الأحداث الغريبة، ولا شك أن ما حدث ونزلت بسببه السورة حدثٌ غريب بالنظر إلىٰ عامة أحوال الصحابة من المسارعة إلىٰ الخيرات، والتفاني في طاعة الله ورسوله ﷺ، وكأن التسبيح يُنزه الله ﷻ عن كل نقصٍ يوهمه ذلك الذي حدث، فإذا أخذنا بقول من يقول: إن أصل التسبيح «المَرُّ السريع في عبادة الله»[2] زاد ظهور مناسبة الكلمة للمقام؛ وكأن فيها تذكيرًا لمن تباطأ عن العبادة وانشغل عن الخطبة بأن الكائنات مسرِعة في عبادة الله.

وقد عُبِّر عن التسبيح بالفعل المضارع الدال علىٰ التجدد الاستمراري، وهذا مناسب أتمَّ المناسبة لحال الصحابة الذين انفضوا إلىٰ العِير وتركوا الخُطبة؛ فكأن الآية تشير لهم أنهم إن انشغلوا وتوقفوا عن الذكر والتسبيح فهناك ما لا ينشغل، بل تسبيحُه متكرر متجدِّد، ثم إن الفعل المضارع -كذلك- بما فيه من استحضار الصورة يعِين علىٰ رؤية هذه الكائنات وهي تسبح الله، لتكون هذه الصورة الحاضرة في مقابلة الذين انفضوا إلىٰ التجارة وتركوا النبي ﷺ قائمًا يذَكِّر بالله الملك القدوس العزيز الحكيم.

واللام الداخلة علىٰ لفظ الجلالة مؤكِّدة للتسبيح؛ إذ الفعل (سبَّح) يتعدىٰ بنفسه[3]، وهذا التوكيد مناسب لحال مَن غفل عن هذه الحقيقة العظيمة؛ فهو من باب تنزيل غير المنكِر منزلة المتردِّد، مع كون هذا الحدث غريبًا من شأنه أن يؤكد.

وقد جاء لفظ الجلالة: (الله) دون غيره من أسماء الله وصفاته، وهو أكثر أسماء الله الواردة في القرآن، وهو أدل الأسماء عليه سبحانه، ومما يجعله الأليق هنا أنه

(١) ينظر: مقاييس اللغة (س ب ح).

(٢) المفردات في ألفاظ القرآن: (س ب ح)، واستبعد ابن عاشور هذا القول: (١/ ٤٠٥).

(٣) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٣٥٧).

سيوصف أو يبْدَل منه -كما سيأتي-.

وأما مَن صدَر منه التسبيح فقد جاء التعبير عنه بـ: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فالتعريف بالموصول (ما) غُلِّبَ فيه غيرُ العقلاء علىٰ العقلاء، وهذا التغليب يحمل في طيَّاته عتابًا للصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-؛ فقد توقفوا عن التسبيح بينما ظلت بقية المخلوقات بما فيها غير العقلاء -وهي أول ما يدخل في اللفظ- تسبِّح ربَّها تسبيحًا متكررًا متجددًا(١).

وتقديم السماوات علىٰ الأرض جاء علىٰ الأصل الكثير(٢)؛ لأنها أعظم في خلقها، مع كون تسبيح أهلها أعظم وأكثر وأدوم: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠]؛ ففيها عتاب من هذه الجهة أكبر.

وتكرير الاسم الموصول في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أدل علىٰ تسبيح أهل الأرض، وهو تكريرٌ مناسِب لكون الذين تركوا الذِّكر والتسبيحَ مِن أهل الأرض.

وقد أُتبِعَ(٣) اسم الله بعدة أسماء له -سبحانه- لم تجتمع بهذا الترتيب إلا في هذه السورة، وقد وقع الجمع بينها مناسبًا للمقام أشد المناسبة، يقول العلامة ابن عاشور: «ومناسبة الجمع بين هذه الصفات هنا أن: العظيم(٤) لا يَنصرف عن

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٠٦)، وقد لاحظ معنىٰ التجدد الاستمراري البقاعي: نظم الدرر: (٧/ ٥٩١)، لكنه لم يربطه بملابسات النزول خلافًا لابن عاشور.

(٢) ينظر: البرهان، للزركشي: (٣/ ٢٥٧).

(٣) علىٰ سبيل الوصفية أو البدلية لكن القول بالبدلية ضعيف، انظر: الدر المصون: (١٠/ ٣٢٥)، وفيه ذِكر لقراءات أخرىٰ لكنها شاذة، فلم أشأ إطالة البحث بذكرها.

(٤) كذا قال، ولو عبر بالمَلِك لكان أنسب؛ ليوافق لفظ الآية.

مجلسه مَن كان عنده إلا عند انفضاض مجلسه أو إيذانه بانصرافهم، و﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾: المنزَّه عن النقص، وهو يُرغب في حضرته، و﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: يعتز الملتفون حوله، فمفارقتهم حضرته تفريط في العزة، كذلك ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ إذا فارق أحد حضرته فاته في كل آنٍ شيء من الحكمة كما فات الذين انفضوا إلىٰ العير ما خطَب به النبي ﷺ؛ إذ تركوه قائمًا في الخطبة»(١).

ثم إن في هذا الإتباع لاسم الله بهذه الأسماء الأربعة تقريرًا وترسيخًا لتسبيح الكائنات له ﷻ، أما علىٰ القول بالوصفية فللمدح لله بصفات تزيد مِن عتاب مَن انفض عن بيتِ مَن هذه صفاتُه، وأما علىٰ البدلية فلِما فيها مِن نيَّة تكرار العامل، وهو تقرير وترسيخ يناسب ما وقع من غفلة وتركٍ للخطبة، كما سبقت الإشارة إليه مرارًا.

وتأمل في الترتيب(٢) لهذه الصفات: فالناس يحرصون علىٰ مجلس المَلِك؛ فكيف إذا كان قدُّوسًا مُنزَّهًا عن النقص؟! فكيف إذا كان عزيزًا؟! فهذا مع الحرص علىٰ مجلسه -خاصة إذا كان في بيته- يُخاف منه ويحتمىٰ بجنابه، فكيف إذا كان

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٨ / ٢٠٧)، وهو صريح منه في ربط الآية الأولىٰ من السورة بسبب النزول الوارد في آخرها، ومثل هذه الإشارات الرابطة بين أول سورة الجمعة وآخرها قليلة فيما وقفت عليه من كلام المفسرين، بل لم أكد أجِدُ شيئًا منها عند غير ابن عاشور، فكثر لذلك نقلي عنه مقارنةً بغيره من المفسرين.

(٢) الترتيب: تقديم شيء علىٰ آخر لنكتة، وهو معدود في المحسنات البديعية، ينظر: حاشية المنياوي علىٰ حلية اللب المصون: (١٣٨)، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها: (٢/ ٣٢٨- ٣٢٩)، وانظر معنىٰ آخر للترتيب في: خزانة الحموي: (٤/ ٦٠-٦٢)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: (٢/ ١٢٢-١٢٣)، والظاهر أن الترتيب أعم من الترقي الذي سيأتي ذكره بعد أسطر، وكذا من التدلي الآتي (ص: ٧٧).

فوق ذلك كلِّه حكيمًا؟! وكأن هذه الصفات بهذا الترتيب زادت من الإشعار بالخطأ وتدرجت في العتاب؛ ففيه ما يسمىٰ عند البلاغيين الترقِّي[1]، وهو ترقٍ مناسب للمقام؛ إذ به يزداد التنبيه علىٰ الخطأ بالتدرج؛ فيزيد معه العتابُ شيئًا فشيئًا.

ولم يَعطف بين هذه الأسماء الجليلة بالواو، بل جاء بها علىٰ الأصل المطَّرد مِن أن صفات الله تأتي متواليةً دون عاطف[2]؛ فدلت بهذا التوالي علىٰ الوحدانية والعظمة باجتماع هذه الصفات في ذاتٍ واحدةٍ هي التي تُسَبَّحُ، واجتماع هذه الصفات معًا أشد في الذَّم علىٰ مَن انصرف في آخر السورة، والله أعلم.

ولعلك تَلمح -مع كل ما سبق- أن هذه الصفات بما يحمله كلٌّ منها مِن معنىٰ لتؤكِّد استحقاق تسبيح الكائنات، وحتميَّته لله -تعالىٰ-؛ مما يزيد مِن عتاب المنصرفين عن ذِكر الله المُشار إليهم آخرَ السورة؛ فالمَلِك ينبغي أن يعظَّم ويسبَّح، والقدُّوس منزَّه عن النقائص -والتسبيح التنزيه-، والعزيز منزَّه عن أن يغلبه أحد، والحكيم منزَّه عن أيِّ خلل فيما شرعه أو أمر به.

كما يمكن أن نَلمح مناسبةَ هذه الأسماء الجليلة مع ما احتفَّ بالنزول مما مضىٰ ذِكْره مِن اكتمال الدِّين بأحكامه الشرعية المختلفة، فإنه دالٌّ علىٰ تمام مُلك الله وتقديسه عن النقص وعزَّته في أحكامه المُحكَمة المشتملة علىٰ الحِكمة.

ثم إن في الختم باسم الله الحكيم مع ما فيه مِن مناسباتٍ معنوية -كما سبق بيانه- مناسبةً لفظيةً؛ حيث جاءت الفاصلةُ متَّسقةً مع ما وَلِيَها من فواصل السورة،

(١) الترقي هو: أن يذكر معنىٰ ثم يردف بما هو أبلغ منه، ينظر: التبيان للطيبي: (٤٩١- ٤٩٣)، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها: (٢/ ١٤٠- ١٤١).

(٢) انظر: قضية الفصل والوصل بين المفردات عند البلاغيين: (٣٣) نقلًا عن البرهان لابن الزملكاني: (٢٣٨).

وفاصلةُ هذه السورة الكريمة تتراوح بين الميم والنون المسبوقتين بحرفَي المد: الواو والياء، وهي فاصلة هادئة لا تجد فيها قوَّةَ التوبيخ الذي تجده في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨ -٩٠]، ولا يخفىٰ الفَرْق بين قول الكافرين الشنيع وبين ما حدَث من بعض الصحابة خطأً، فناسَبَتْ كلُّ فاصلة موضعَها(١).

(١) لم أشأ إطالة البحث بذكر ما يتعلق بالفاصلة في ختام كل آية من آيات السورة الكريمة؛ فاكتفيت بهذه الوقفة، خاصة أن السورة متقاربة الفواصل كما هو ظاهر.

المطلب الثاني:
الامتنانُ ببعثة سيد الأنام ﷺ

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢ - ٤].

جاءت هذه الآيات الثلاث تذكيرًا للمؤمنين بنعمة الله عليهم ببعثة رسول الله ﷺ فيهم، وبيانًا «لشدَّة حاجتهم لنبيٍّ يرشدهم»(١)، وهذا التذكير والامتنان مناسب جدًّا لمُلابسات السورة؛ فكون السورة مدنيَّةً متأخرةً بعد خيبر وما تلاها من نِعم حسِّيةٍ كالشِّبَع، ومعنويةٍ كاكتمال الأحكام = يناسب ذلك الامتنان؛ إذ قد تمَّت المِنَّةُ أو قاربت علىٰ التمام، والخطأ الذي وقع فيه مَن انصرف عن الخطبة يناسبه التذكيرَ بالنِّعم كذلك.

وأول ما يسترعي الانتباه عند تحليل آيات هذا المطلب، هو ما فيها من حسن التخلص؛ حيث ذكرت أربعة أسماء في ختام الآية الأولىٰ: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، ثم جاء قولُه تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾ الآيةَ متناسبًا مع تلك الأسماء أشدَّ المناسبة، قال ابنُ عاشور في وجه اتصال الآيتين: «اسْتِئْنَافٌ بياني ناشئ عَنْ إِجْرَاءِ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ آنِفًا عَلَىٰ اسْمِ الْجَلَالَةِ؛ إِذْ يَتَسَاءَلُ السَّامِعُ عَنْ وَجْهِ تَخْصِيصِ تِلْكَ الصِّفَاتِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَكَانَ الْحَالُ مُقْتَضِيًا أَنْ يُبَيَّنَ شَيْءٌ عَظِيمٌ مِنْ تَعَلُّقِ تِلْكَ الصِّفَاتِ بِأَحْوَالِ خَلْقِهِ تَعَالَىٰ؛ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا يُطَهِّرُ نُفُوسَهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ؛ فصِفة الْمَلِكِ تَعَلَّقَتْ بِأَنْ يُدَبِّرَ أَمْرَ عباده وَيصْلح

(١) تفسير البيضاوي: (٩/ ١٧٢).

شؤونَهم[1]، وَصِفَةُ الْقُدُّوسِ تَعَلَّقَتْ بِأَنْ يُزَكِّيَ نُفُوسَهُمْ[2]، وَصِفَةُ الْعَزِيزِ اقْتَضَتْ أَنْ يُلْحِقَ الْأُمِّيِّينَ مِنْ عِبَادِهِ بِمَرَاتِبِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَيُخْرِجَهُمْ مِنْ ذِلَّةِ الضَّلَالِ فَيَنَالُوا عِزَّةَ الْعِلْمِ وَشَرَفَهُ[3]، وَصِفَةُ الْحَكِيمِ اقْتَضَتْ أَنْ يُعَلِّمَهُمُ الْحِكْمَةَ وَالشَّرِيعَةَ[4]»[5]، وبهذا يظهر الاتصال القوي بين الآيات، وكأن المَطلعَ -مع ما سبق فيه مِن براعة الاستهلال- مهِّد لما جاء بعده.

ثم إننا إذا مضينا في النظر إلىٰ الآيات لإظهار عَلاقتها بملابِسات نزولها نجد الله تعالىٰ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾؛ فافتتح الآيةَ بالضمير العائد إلىٰ الله المَلك القدوس العزيز الحكيم المذكور في افتتاح السورة، وقد حصل بهذا التوكيد والتقرير المناسِب لمقامِ عدم التذكر للنعمة والذهول عنها عند وقوع الخطأ، مع أن النعمة ظاهرة قد أوشكت علىٰ الاكتمال كما مضت الإشارة إليه قريبًا، وقد جاء الخبر اسمًا موصولًا؛ فأشعرت المَوصولية أن مضمون الصلة معهود[6] مُشتهر عند السامعين[7]، والصحابة ﷺ كانوا يعيشون آثار تلك البعثة،

(١) كأنه ناظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، ويمكن أن يكون ناظرًا لبقية ما ذكر في الآية أيضًا.

(٢) وهذا ناظر إلىٰ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

(٣) وهذا ناظر إلىٰ: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

(٤) وهذا ناظر إلىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

(٥) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٠٧)، وانظر توجيهًا آخر في تبصير المنان وتيسير الرحمن = تفسير المهايمي: (٢/ ٣٤١).

(٦) انظر في دلالته علىٰ العهدية: معاني النحو: (١/ ١٢٣- ١٢٤).

(٧) انظر في كون التعبير بالصلة يفيد أن مضمون الصلة مشهورٌ عند السامعين: التحرير والتنوير: (١٤/ ٢٦٤)، وأصل المسألة في: دلائل الإعجاز: (٢٠٠).

بل ويقطفون ثمارَها، فكان ينبغي لهم ألا يغفلوا عن مُسدي تلك النعمة العظيمة، ويلاحَظ أن التعبير جاء بـ(الذي) دون (مَن) و(ما)، وهذا كثير في القرآن في حديث الله عن نفسه، والسر في ذلك -والله أعلم- أن ﴿ٱلَّذِى﴾ أكثرُ تحديدًا وتخصيصًا مِن (مَن)، و(ما)؛ لأنها أعرف منهما، مع اختصاصها بالمفردِ وبذوي العِلم دونهما(١)، وهذا التخصيص والإفراد هو المناسب لمقام التذكير بتفرد الله بنعمة بعث الرسول في الأميين، وقد جاء هذا التوكيد للمؤمنين الذين لا ينكرون هذه الحقيقةَ، بل هي جزء من عقيدتهم؛ لكنهم نُزِّلوا منزلةَ المنكِرين لظهور أمارات الإنكار عليهم بانفضاضهم إلىٰ ما انفضوا إليه، وقد جاءت صلة الموصول فِعلية ماضويَّة، فأفادت بفعليتها المفيدة للحدوث التذكيرَ بأن البعثة قد وقعت بعد فترة سبقتها كان الأميُّون فيها جهَّالًا، كما أشعرت بماضويتها المفيدة التقييد بالزمن الماضي بأن هذه البعثة قد تمَّت ووقعت، هذا مع أن آثارها مستمرة، كما سيأتي عند سرِّ التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَتْلُواْ﴾ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾.

ومما زاد المِنَّة جِلاءً والتعريضَ قوةً = ما في مادة البعث من معنىٰ الإثارة، التي تشعر أنهم كانوا في فترة ركود، وانعدام حركة(٢)، ويبدو مِن التأمُّل في أصل مادة البعث أنَّ فيه نوع مفاجأة، مع أن في التعبير بـ:(بعث... رسولًا) تفننًا أثْرىٰ النصَّ بما يناسب مقام الامتنان، حيث حصل التصريح بنعمتَي البعث والرسالة معًا، كما

(١) انظر: معاني النحو: (١/ ١٣٧- ١٤٠).

(٢) قال ابن فارس: «(بعث) الباء والعين والثاء أصلٌ واحد، وهو الإثارة»، مقاييس اللغة (بعث)، وجاء في نظم الدرر: «قال الحرالي: من البعث وهو الاستثارة من غيب وخفاء، أشده البعث من القبور، ودونه البعث من النوم»، نظم الدرر: (١/ ١٣٧)، وانظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل: (١/ ١١١)، ففيه مزيد بيان لمعنىٰ الإثارة، والإنهاض، والدفع نحو عمل شيء، وفي الفروق اللغوية: (٢٩٩) ما يدل أن البعث أعم من الإرسال، والله أعلم.

يلاحظ أن الكلام جاء بأسلوب الغَيبة: ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ دون الخطاب: (فيكم)؛ إذ المقام مقام تعريض -بالنظر لآخر السورة-، فناسب الغَيبة دون الخطاب، وقد هيَّأ أسلوب الغَيبة لذِكر الأميين فلفَت الانتباه إلىٰ أنهم كانوا بعيدين عن التعلم، فالمِنَّة عليهم أكبر؛ إذ هم «أحوج إلىٰ الرسول؛ سيَّما وقد تغيَّرت المِلل السابقة»[(١)]، وفيه كذلك إشارة إلىٰ اليهود الآتي ذِكرهم قريبًا، وتذكير للصحابة ﷺ بأنهم كانوا في نظر اليهود مجرَّد (أميين)؛ وإذا بهم قد بعث الله فيهم رسولًا.

وتعريف الأميين: إما أن يكون للعهد العِلمي[(٢)]؛ وعليه ففيه استحضار لحالهم المعهودة في الجاهلية -وهذا يزيد المنَّة عليهم-، أو يكون لاستغراق أفراد الجنس -والامتنان فيه ظاهرٌ بكون البعثة شاملة لهم-، وأما حرف الجر (في) فيدل علىٰ وجوده فيهم إبَّانَ بعثته، وهذا مناسب للامتنان، لكنه مع ذلك يحوي في طيَّاته إشارة إلىٰ أنه غير مختص بهم، بخلاف ما لو عبَّر بـ(إلىٰ)[(٣)]، وفي هذا تعريض بأنهم إن تولوا عن قبول تحمُّل الأمانة فهناك مَن يتحملها غيرهم، وهو متناسب مع قوله بعدُ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾، كما أنه ناظرٌ إلىٰ الحادثة التي نزل لأجلها آخر السورة، ولعل في معنىٰ الظرفية ما يُشعر أنه بُعث وسطهم وقد أحاطوا به وخبروا أمرَه؛ فكان ذلك عونًا لهم علىٰ معرفة صدقه -وهذا امتنان آخر-، وفي تقديم الجار والمجرور: ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ علىٰ المفعول: ﴿رَسُولٗا﴾ ما يُشعر بأهمية هذا القيد؛ إذ يُذكِّر بحالهم

(١) تفسير المهايمي: (٢/ ٣٤١).

(٢) العهد العلمي عند البلاغيين: هو ما كان معلومًا عند المخاطَب سواء كان حاضرًا أم غير حاضر شريطةَ ألا يتقدم له ذكر صريح ولا كنائي، واصطلاحات البلاغيين في هذا الباب تختلف عن اصطلاحات النحاة، فليتنبه إلىٰ هذا، انظر: حاشية الدسوقي علىٰ مختصر المعاني: (١/ ٣٢٠)، وقارن بالمفصل في تفسير القرآن: (١٩٥٥) حيث مشىٰ علىٰ اصطلاح النحاة.

(٣) انظر: نظم الدرر: (٧/ ٥٩٢).

قبل الإسلام مما يزيد من الامتنان، وقد نكَّر المفعول ﴿رَسُولًا﴾ فناسب -بدلالته علىٰ التعظيم والتفخيم- الامتنانَ الذي يهدف إلىٰ التعريض.

وتقييد المفعول بالوصف ﴿مِنْهُمْ﴾ناسب المقام بزيادة الامتنان؛ «... فإن كون الرسول منهم وكتابه بلُغتِهم هو أعون علىٰ تلقِّي الإرشاد منه؛ إذ ينطلق بلسانهم وبحملهم علىٰ ما يُصلح أخلاقهم ليكونوا حملةَ هذا الدِّين إلىٰ غيرهم»(١).

ثم إنه -سبحانه- أتبع وصفَه الرسولَ بأنه منهم بثلاثة أوصاف أخرىٰ؛ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، فأفاد هذا التقييد بالوصف تحديد ثلاث مَهام لرسول الله ﷺ:

١/ تلاوة الآيات.

٢/ التزكية.

٣/ تعليم الكتاب -وهو القرآن -، وتعليم الحِكمة -التي هي السُّنة علىٰ المشهور(٢)-.

وهي صفات تزيد المِنَّةَ علىٰ الأميين، وقد أفادت صيغة المضارع في الأفعال الثلاثة تَكرار حدوثها، وهذا مع زيادته للامتنان يُشعِرُ بأنهم ما زالوا محتاجين للتربية النبوية، بدليل هذا الذي حدث ونزلت لأجله السورة، كما أن في المضارع من تصوير هذه المهامِّ واستحضار صورتها ما يجعلها حيَّةً ماثِلةً أمام المخاطَبين، وتصورها يُعِين علىٰ استشعار المنَّة بها، ولعلها تذكِّرهم -أيضًا- بالأحوال العظيمة التي كان النبي ﷺ مُتلبِّسًا بها أو ببعضها عندما انفضوا عن الخُطبة.

(١) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٠٨).

(٢) وقيل: هي المعرفة بالدين والفقه فيه، ولا منافاة بين القولين، تفسير ابن كثير: (١/ ٦٤٥).

كما أن في وصف الرسول الأمي ﷺ بالتلاوة وتعليم الكتاب والحِكمة وتزكية النفوس مزيدَ امتنان؛ لأن هذه المنَّة لم تكن في الحُسبان، فهم أميُّون، والمبعوث فيهم أمِّيٌّ، فكيف وقع منه ﷺ هذا كلُّه[1]؟!

وقد جاءت هذه الصفات علىٰ ترتيبٍ مطابِق للواقع؛ فقد بدأ بالتلاوةِ؛ وهي أول مراحل تبليغ الدعوة، وثنَّىٰ بالتزكية؛ وهي تطهيرٌ مِن الشرك ابتداءً، ومِن الأعمال والطِّباع والسَّيئة بعد ذلك، وختم بتعليم الكتاب والحِكمة[2]، ومع كون هذا الترتيب مطابقًا للواقع إلا أنه كذلك تدرجٌ مِن المنَّة الأعم إلىٰ الأخص كما هو ظاهر، فهو من الترقِّي[3]، وبه زاد الامتنان الذي جاءت الآيات لأجله كما تقدم مرارًا.

ومع أنَّ الترتيب المذكور مطابِق للواقع لكن يمكن أن يقال بالنظر إلىٰ ما مرَّ من «ملابسات النزول» أن التزكية في هذا المقام أهم من التعليم من جهتين[4]:

الأولىٰ: أن ما حدث ونزلت من أجله السورة أمرٌ يحتاج إلىٰ التزكية أكثرَ مِن احتياجه للعِلم، وقد رأينا السورة كلَّها تبدأ بالتزكية؛ حيث بدأت بتسبيح الكائنات، ثم التذكير بمِنَّة البعثة، ثم التحذير من حال اليهود -وكل هذا أقرب إلىٰ التزكية-، إلىٰ أن ختمت السورة بأحكام الجمعة.

الثانية: أن الهدف الأسمىٰ من صلاة الجمعة التزكية؛ وإن كان العلم مقصودًا

(١) قارن بالتحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٠٩).

(٢) انظر: التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٠٩).

(٣) سبق تعريفه: (٢١٩).

(٤) للعلماء في توجيه ترتيب الآية عن طريق مقارنتها بالآيات المشابهة لها كلامٌ طويل خارج عن حدود البحث، انظر علىٰ سبيل المثال: ملاك التأويل: (١/ ٩١- ٩٣).

فيها أيضًا، يقول ابنُ القيم -ضِمن ذكره لخصائص الجمعة-: «إنَّ فِيهِ الْخُطْبَةَ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا الثَّنَاءُ عَلَىٰ اللهِ وَتَمْجِيدُهِ، وَالشَّهَادَةُ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ بِالرِّسَالَةِ، وَتَذْكِيرُ الْعِبَادِ بِأَيَّامِهِ، وَتَحْذِيرُهِمْ مِنْ بَأْسِهِ وَنِقْمَتِهِ، وَوَصِيَّتُهُمْ بِمَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ جِنَانِهِ، وَنَهْيُهُمْ عَمَّا يُقَرِّبُهُمْ مِنْ سُخْطِهِ وَنَارِهِ، فَهَذَا هُوَ مَقْصُودُ الْخُطْبَةِ وَالِاجْتِمَاعِ لَهَا»(١)؛ فلعله لذلك -والله أعلم- قُدِّمت التزكيةُ التي هي مَقصود الخُطبة، خاصَّةً أن الخُطبة هي التي نزلت مِن أجلها السُّورةُ.

ثم إن تقديمَ الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بما فيه من اهتمام وعناية بهم، وإضافةَ الآيات إليه سبحانه بما فيها من تشريف زادت من إظهار المِنَّة المناسب للمقام.

ومما زاد الامتنان، وجاء التعبير فيه واضحًا صريحًا -وكأن شدة التعريض قد بدأت تزيد معه في الآيات- التتميمُ(٢) في قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾، فقد جاءت الجملة الحالية(٣) مذكِّرةً بالحالة التي كانوا عليها قبل البعثة، وأُكِّدت الجملةُ بـ: (إنْ) المخففَّة مِن الثقيلة، واللام الفارقة؛ تنزيلًا لهم منزلة المتردِّد؛ لأن تصرفاتهم تشبه تصرفاته، كما جاء الفعل الناسخ (كان) فأشعر برسوخهم في الضلال في الجاهلية، مع ما في الظرفية المجازية باستعارة الحرف: ﴿فِى﴾ من الإشعار بإحاطة الضلال بهم من كل جانب، وتنكير ﴿ضَلَٰلٍ﴾ من التعظيم لذلك الضلال وأنه لا يدرَك كنهُه، ووصفه بـ: ﴿مُّبِينٍ﴾ من زيادةٍ لتصوير الحالة، وهذا أنسب للامتنان؛ لأن مع الامتنان في الآية شوبًا من العتاب، وقد أتي بالجار والمجرور ﴿مِن قَبْلُ﴾ فحصل بذلك التذكيرُ بالحالة التي كانوا عليها، وتقديمها علىٰ متعلقها: ﴿ضَلَٰلٍ﴾ زاد من إظهارها والاهتمام بها والتنبيه عليها حتىٰ لا ينسوا

(١) زاد المعاد: (١/ ٣٨٦)، وانظر المرجع نفسه: (١/ ٤٠٩).

(٢) التتميم هو: أن يؤتىٰ في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة لنكتة، تلخيص المفتاح: (٢٣١).

(٣) تدخل في الفضلة المذكورة في تعريف التتميم الجملة الحالية، انظر: شروح التلخيص: (٣/ ٣٥٢).

ما كانوا عليه قبلُ وما صاروا إليه بعدُ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾، وفي هذا مزيد تعريض يشعر بشيء من التحذير إن لم تُشكَرْ نعمةُ الله علىٰ الأميين ببعثة النبي ﷺ؛ إذ المختار في الآية علىٰ ما رجَّح الطبري أن المعني بها: «... كلُّ لاحِقٍ لَحِق بالذين كانوا صَحِبوا النبيَّ ﷺ في إسلامهم مِن أيِّ الأجناس؛ لأن الله عز وجل عمَّ بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾ كلَّ لاحقٍ بهم مِن آخرين، ولم يخصِّص منهم نوعًا دون نوع، فكلُّ لاحِقٍ بهم فهو من الآخَرين الذين لم يكونوا في عِداد الأوَّلين الذين كان رسولُ الله ﷺ يتلو عليهم آياتِ الله»(١)؛ فبعثةُ رسول الله ﷺ وشرفُ اتباع دِينه ليس أمرًا خاصًّا بالصحابة؛ ففيه مع الامتنان بانتشار الدِّين تذكيرٌ بوجود آخَرين ينالون هذا الشرف، وهذا مناسب تمامَ المناسبة لإرسال الرسائل إلىٰ الملوك لدعوتهم للإسلام، ومجيء الوفود للمبايعةِ والدخولِ في هذا الدين(٢)، وهما حدَثان أُشير إليهما مِن قبل في «ملابسات النزول»، ومما زاد هذا الأمرَ قوَّةً أن أَسند علىٰ سبيل المجاز العقلي تعليمَ هؤلاء الآخرين إلىٰ الرسول ﷺ، رغم أنه لا يباشر ذلك مع كلِّ أحد ممن عاصره؛ فضلًا عن غيرهم ممن يأتي بعده(٣)، وقد يكون في هذا تنبيهٌ لهم أن عليهم عند سماع الخطبة الاهتمام بتحملها لنقلها لمن بعدهم، وهذا يتناسب مع ما سبقت الإشارة إليه مِن أن القرآن المدني يهيِّئ الأمة لحَمْل الأمانة وإقامة دولة الإسلام(٤).

وقد جاءت الآية في نَظم بَديع يقويِّ هذه المناسبة، فقد جاء التعبير بـ:

---

(١) تفسير الطبري: (٢٢/ ٦٣١).

(٢) ينظر ما سبق حول هذه الأحداث: (٢١١).

(٣) انظر: الكشاف: (١٥/ ٤٠٣).

(٤) انظر: (٣١) في الكلام علىٰ مدنية السورة.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ فأدَّىٰ بمادَّته مع تنكيره إلىٰ إبهامٍ يدعو إلىٰ التساؤل عن هؤلاء القوم، والاشتياق إلىٰ معرفتهم، ولعل ذلك هو الذي دعا أبا هريرة ﷺ أن يسأل عنهم في الحديث الماضي ذِكرُه في الملابسات، حيث قَالَ: «مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟»(١)، وقد زاد التحذير قوةً بمجيء ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ بصيغة جمع المذكر السالم الموضوع لذوي العِلم، فهُم جَمْعٌ مِن جهةٍ، عقلاءُ مِن جهةٍ أخرىٰ، كما كان لوصفهم بأنهم ﴿مِنْهُمْ﴾ أثرُه في ذلك التحذير؛ إذ هو مذكِّر بأن مَن دخل الإسلام صار كالمسلمين بل صار منهم(٢)، وإنما يكون التفاضل بعد ذلك بالتقوىٰ؛ فكأن فيه تحذيرًا من التباطؤ عن الخير، وفي ﴿لَمَّا﴾ بما فيها من نفي الوقوع مع توقُّع حدوثه قريبًا(٣)، مع ما في التعبير باللحاق(٤) من تصوير المستجيبين لدعوة نبينا الكريم -عليه أفضل صلاة وأتم تسليم-، وكأنهم يتسابقون في الاستجابة، فهناك سابقون -وهم الصحابة ﷺ-، وهناك لاحِقون، ومع كل هذا التناسب مع ذَينك الحَدَثَيْن(٥) إلا أن اللحاق يناسب التعريض بما حصل من ترك للخُطبة؛ لأنه يشعر الصحابةَ أن آخرين سيلحقون بهم قريبًا، بل سيصيرون منهم.

وأما ختْمُ الآية بقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيلاحَظ أنه تكريرٌ لاسمين كريمين من أسماء الله وَرَدَا في افتتاح السورة، فهو من باب رد العَجُز علىٰ الصَّدْر(٦)،

(١) مضىٰ تخريجه (ص: ٢٠٨)، ومع صحة هذا الحديث إلا أن الطبري وغيره حملوا الآية علىٰ العموم -كما مر قبل أسطر-.

(٢) علىٰ اختلاف بين المفسرين في تحديد معاد الضمير في (منهم)، انظر: زاد المسير: (٨/ ٢٠).

(٣) انظر: مغني اللبيب: (٣٥٤- ٣٥٥).

(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ل ح ق).

(٥) إرسال الرسائل للملوك، واستقبال الوفود.

(٦) من أحسن تعريفاته وأوسعها: رد أعجاز الكلام علىٰ ما تقدمها، البديع، لابن المعتز: (١٤٠)، =

وهو يؤكِّد شدةَ اتصال الافتتاح بهذا المقطع، مع كون الاسمين الكريمين مناسبَين أشدَّ المناسبة لِما في الآية من التعريض؛ فالله عزيزٌ لا يحتاج لأحد، حكيمٌ في مجيء آخَرين بعد الأميين، وهو مع ذلك عزيزٌ ينصر دينَه بمَن شاء، حكيمٌ في تدبيره ذلك، ويمكن أن نلاحظَ -أيضًا- في الاسمين الكريمين المناسبةَ لحال اليهود المعترضين علىٰ بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين من العرب الأميين، والناقضين للعهد الذين ذاقوا بسبب نقصهم الهوان والذل، فهو عزيز ظهرت عزته في إعزازه لرسول الله ﷺ ومَن تَبِعه، كما ظهرت فيما وقع لليهود من هزائمَ في خيبر وغيرها، حكيم فيما صنعه به وبهم -سبحانه-.

ثم قال -سبحانه-: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾.

هذا ختام الامتنان، وفيه خلاصة ما قبله؛ فكأنه تذكير قبل الانتقال، وهذا مِن أنسب ما يكون بالمقام؛ إذ ليس الامتنان إلا تمهيدًا وتوطئةً لما سيأتي مِن عِتاب؛ فكان مِن المناسب أن تُذكر خلاصتُه لتَرسخ في النفوس قبل الانتقال إلىٰ ما بعدها، وقد جاءت ألفاظ الآية مُعِينة علىٰ تحقيق أهداف المَقطع؛ فاسم الإشارة بحسِّيَّته صوَّر النعمةَ ظاهرةً مشاهَدة يشار إليها باليد فتتميز أكمل تمييز، مع ما فيه من البُعد الذي يرفعها فينزلها أعلىٰ منزلة، وفي الوقت نفسِه يُشعِر بأنها بعيدة المَنال لا ينالها الإنسان بجهده، بل هي محض امتنان، والفضل في اللغة: «الزيادة والخير»(١)، فلما أضيف الفضلُ إلىٰ الله زادت خيريَّتُه وعلَتْ مكانته، وإضافته إلىٰ لفظ الجلالة

= وقد وافق المفسرون البلاغيون ظاهر عبارة متقدمي البلاغيين كابن المعتز وغيره، انظر: معجم المصطلحات البلاغية: (٢/ ٢٢٨ فما بعدها) تحت مصطلح (التصدير)، والملاحظ أن ابن المعتز بعد أن عرف رد العجُز علىٰ الصدر هذا التعريف العام قسمه ثلاثة أقسام تجعله قريبًا مما حده به القزويني، والمسألة تحتاج إلىٰ مزيد بحث وتحرير.

(١) مقاييس اللغة (ف ض ل).

﴿ٱللَّهِ﴾ دون الكريم -مثلًا- يذكِّر أن الذي تفضَّل هو مَن جمَع صفات الجمال والكمال والجلال، وأن فضله وإنْ كان عن رحمة وكرم إلا أنه -أيضًا- عن عزَّة وحكمة... إلىٰ غير ذلك مما يمكن أن يُستحضر من صفات الله -عز وجل- المناسِبة للمقام.

وقد جاء الفعل ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ مضارِعًا فأشعر بقرينة الامتنان بتجددِ واستمرار هذا الإيتاء؛ مما يجعل الفضل غير مختصٍّ بأحد، وهذا يناسب التعريض الذي استفيد من قوله قبل ذلك: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾، كما يناسب إرسالَ الرسل للملوك دعوةً لهم، ويناسب قدومَ الوفود، وإذا أخذنا بما قاله أبو هلال العسكري في الفَرق بين المشيئة والإرادة من أن: «الْإِرَادَة تكون لما يتراخىٰ وقته وَلما لا يتراخىٰ، والمشيئة لِما لم يتراخَ»(١) فسنجد التعبير بالمشيئة أليقَ في مقام الإشعار بقرب هذا الإيتاء، وفيه مزيد امتنان من جهةٍ أخرىٰ لَمَحها البقاعي عندما قال في تفسير الآية الكريمة: «﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ بحوله وقوته؛ بأنْ يُهيِّئه له ولو كان أبعدَ الناس منه»(٢)، والذي يظهر أنه أخذ هذا المعنىٰ مما قرره في سورة الكوثر من أن «الإيتاء أصله الإحضار وإن اشتهر في معنىٰ الإعطاء»(٣)، مع أنه لاحَظ كذلك -فيما يبدو- العمومَ الذي دل عليه ﴿مَن﴾، ويمكن أن يلاحَظ في: ﴿مَن﴾ أمرٌ آخر لا يتعارض مع ما سبق، وهو اختصاصُها بالعاقل، وفي هذا إشارة إلىٰ أنَّ هذا الفضل إنما يناله أولو الألباب.

---

(١) الفروق اللغوية: (١٤٢).

(٢) نظم الدرر: (٧/ ٥٩٥).

(٣) نظم الدرر: (٨/ ٥٤٧)، وكأنه أخذه من الكشاف: (١٣/ ٦٠٣)، وفي الفرق بين الإيتاء والإعطاء آراء متعددة وخلاف طويل، انظر علىٰ سبيل المثال: البرهان: (٤/ ٨٥)، والإتقان: (٤/ ١٣٠٨-١٣٠٩)، وتاج العروس: (أ ت ى).

ثم جاءت الجملة الأخيرة: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فزادت الامتنانَ؛ إذ إنَّ قولَه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار زاد الأمر جِلاءً، وجعل الجملةَ مستقلةً برأسها لا تحتاج إلىٰ ما قبلها، وقوله: ﴿ذُو﴾ قريب مِن معنىٰ (صاحب)، لكن (ذو) أبلغ، وأدل علىٰ الشرف[(١)]؛ فهو الأبلغ في مقام الامتنان والتذكير بشدة الحاجة إلىٰ نبي؛ إذ كلما كان المتفضل أشرفَ كان الامتنانُ أعظمَ، وقد وصف الفضل بأنه ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ فزادت المنَّة في آخر كلمة من هذا المقطع، مع ما فيه من مراعاة الفاصلة، والله أعلم.

◆ ◆ ◆

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن: (٣/ ١١٠٤).

المطلب الثالث:
التعريض بالكلام عن اليهود

بعد أن عَظُم في الآيات السابقة الامتنان، وظهرت شدة الحاجة إلىٰ بعثة المصطفىٰ من عدنان ﷺ انتقل الحديثُ عن اليهود ومع اليهود، ولعل أهمَّ أغراض هذا الانتقال هو التنبيه علىٰ أن المِنَّة والتشريف، يتبعهما عمَل وتكليف، وأن هذه المنَّة قد تؤول إلىٰ ضدها إذا لم يؤدَّ حقُّها، مع ما فيه من مناسبةٍ للعهد المدني الذي نزلت فيه السورة، حيث يُربىٰ المؤمنون علىٰ الحذر من التقصير في الأمانة العظيمة التي كلَّفهم الله بها، ولابد عند تحليل هذه الآيات من تذكُّر الحال التي كان عليها اليهود وقتَ نزولها، فقد سقطت خيبر وأُجلي اليهودُ، وقلَّ نفوذُهمْ ووجودهم في المدينة النبوية، وظهر غدرُهم كما مر[1].

قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

إذا وقفنا مع هذه الآيات مستحضرين ما سبق نلاحظ بجِلاءٍ كيف ذمَّت الآيات اليهودَ بما يتناسب مع الحالة البئيسة التي انحدروا إليها، وفي ضمن ذلك التحذير لهذه الأمة عمومًا، وللمنصرفين عن الخطبة التي ستأتي الإشارة إليهم في آخر السورة خصوصًا؛ فقوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ﴾ يدل علىٰ أن اليهود صاروا مثلًا،

(١) انظر ما سبق في ملابسات النزول: (٢٠٩- ٢١٠).

مما يُشعر بشُهرة حالهم وافتضاح أمرهم -وهذا متَّسِق تمامًا مع حالهم وقت النزول-، كما أنه يشعر أنه ينبغي أخْذ العبرة من حالهم -وهذا يناسب التحذير للمؤمنين، والتعريض بالمنصرفين-، «وكل مَن لم يعمل بعلمه فهذا مَثَلُه»[(١)]، وقد عبَّر عن اليهود بالموصولية في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ بما في الموصول من الإشارة إلىٰ الاشتهار بالصلة، مما يُذكِّر بانكشاف أمرهم وافتضاح حالهم للمسلمين، وبما في الصلة من الإشعار بالمسؤولية التي وضعت علىٰ ظهورهم، وهي مناسبة جدًّا للانتقال من الامتنان السابق علىٰ المؤمنين إلىٰ الإشعار بأن مع المنة حِملًا ومسؤولية.

والتعبيرُ المجازي بـ: (حُمِّل) عن: (كُلِّفَ) استعارةٌ تصريحية تصوِّر هؤلاء القوم وكأنهم يحملون التوراة علىٰ ظهورهم[(٢)]، وهذا يقرب حالهم من الحسِّ، ويقربهم كذلك من صورة الحمار الذي سيذكر وهو يحمل فوق ظهره الأسفار، وبناء الفعل (حمِّل) للمفعول زاد في ذمهم؛ إذ «العلم -ولا سيما الربَّاني- يجب أن يُفرح به ويرغب فيه من أيِّ موصل كان»[(٣)]، مع أنه أبعدهم بعدم التصريح بالفاعل عن مقام التلقي المباشر عن الرب «صيانة لاسمه الشريف عن أن يذكر عند العصيان»[(٤)].

والتوراة: «اسْمٌ عِبْرَانِيٌّ أَصْلُهُ (طُورَا) بِمَعْنَىٰ الْهُدَىٰ... فَلَمَّا دَخَلَ هَذَا الِاسْمُ إِلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ أَدْخَلُوا عَلَيْهِ لَامَ التَّعْرِيفِ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَىٰ الْأَوْصَافِ وَالنَّكِرَاتِ لِتَصِيرَ

---

(١) الكشاف: (١٥/ ٤٠٥).

(٢) ويرىٰ الشهاب أن هذا الإطلاق شائع يلحق بالحقيقة: حاشية الشهاب: (٩/ ١٧٣).

(٣) نظم الدرر: (٧/ ٥٩٥).

(٤) المصدر نفسه مع الصفحة نفسها.

أَعْلَامًا بِالْغَلَبَةِ: مِثْلُ الْعَقَبَةِ...»[(١)]، ولاشك أن ذِكره بهذا الاسم أشد ذمًّا لهم؛ إذ قد حمِّلوا الهدىٰ فلم يحملوه، وبملاحظة أن لام التعريف دخلت هنا لتكون التوراة عَلَمًا بالغَلَبة[(٢)] علىٰ هذا الكتاب الذي أنزله الله علىٰ موسىٰ ﷺ، فإن التعبير به أشد صراحة، وهو إلىٰ الذهن أسرع[(٣)]، وهو لليهود الذين جاء الكلام في ذمِّهم بعد افتضاح حالهم أوجع، وحرف العطف (ثم) يدل علىٰ أن عدم الحمل لم يكن مقارِنًا لوقت التحميل، وكأنه يحذِّر من التراخي في حمل الأمانة مع مرور الوقت، ثم جاء تمثيلهم بالحمار الذي «يوصف بالذِّلة والهوان، كما يوصف بالجهل والبلادة»[(٤)]، وكلها صفات متحققة في اليهود عمومًا، لكنها ألصق بهم بعد ما مضت الإشارة إليه في «ملابسات النزول» -خصوصًا-، ويمكن أن يضاف هنا أن الحمار زاد خبثًا في تصور كل مسلم؛ إذ حرمت الحمر الأهلية في خيبر كما مضىٰ في «ملابسات النزول» كذلك[(٥)]، و(ال) في الحمار للعهد الذهني عند البلاغيين[(٦)]؛ فهي أَولىٰ من النكرة؛

---

(١) التحرير والتنوير: (٣/ ١٤٨)، وهناك من يرىٰ أن لها أصلًا عربيًّا من أوريت الزناد، انظر علىٰ سبيل المثال: تهذيب اللغة (ورىٰ)، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (٢/ ٧٣٤)، وعلىٰ هذا القول يظل الذم لهم ظاهرا أيضًا.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٣/ ١٤٨).

(٣) انظر: معاني النحو: (١/ ٨٥).

(٤) الزهر والأكم في الأمثال والحكم: (٣/ ١٤)، وانظر: مفردات ألفاظ القرآن (ح م ر)، وتفسير الآلوسي: (٢٨/ ٩٥).

(٥) انظر ما سبق: (٢١٠).

(٦) تفسير الآلوسي: (٢٨/ ٩٥)، وقيدته بالبلاغيين لأن لام العهد الذهني عندهم هي المشار بها للحقيقة في ضمن فرد مبهم، وهي تختلف عن لام العهد الذهني عند النحاة، انظر: حاشية الدسوقي: (١/ ٣٢١).

لإحضارها الجنس بصفته التي عُرف بها، فتكون أسرع في الذم وأصرح[(١)].

ثم إن الحديث عنهم بأسلوب الغَيبة يناسب غَيبتهم وقد تَركوا المدينة[(٢)]، ولم تكتفِ الآيةُ بتمثيلهم بالحمار، بل قيد بحالة حمله أسفارًا، والأسفار جمع سِفْر، و«السفر: الكتاب الذي يُسفر عن الحقائق»[(٣)]؛ فالتعبير بالأسفار أشد في ذمهم؛ إذ هي كتب مُسفِرة عن الحقائق، مع ما في التنكير من التفخيم[(٤)] الذي يزيد الذم، ولكنهم مع كل هذا كمثل الحمار يحمل أسفارًا، فلا يرىٰ إلا ثقلها علىٰ ظهره؛ فكان هذا التشبيه التمثيلي بما فيه من تقريب حالهم المعقولة بحال محسوسة مشاهدة معروفة في غاية التقبيح لحالهم التي صاروا إليها، وفيه مع ذلك غاية التحذير لغيرهم من أن يُسلَك سبيلهم، ففيه نظرٌ إلىٰ التعريض الذي ارتبط بآخر السورة.

ثم قال تعالىٰ في مزيد من البيان لقبح فعالهم، والتحذير للمؤمنين من حالهم: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ بما في (بئس) مِن إظهار الذم لهم، وبما في الإظهار في مقام الإضمار بالاسم الموصول من إظهارِ اشتهارهم بهذه الصلة، والدلالةِ علىٰ أن مَن لم يتحمل الأمانة مكذِّب بآيات الله، وفي هذا تحذير شديد وحثٌّ علىٰ أخذ الكتاب بقوة وعدم التفريط في الأمانة، وكل هذا متناسب أتم التناسب مع مقصود السورة وسبب نزولها.

ثم قال عز مِن قائل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ۝٥﴾، فأظهر في مقام الإضمار،

---

(١) انظر: المطول: (١/ ٢٦٨- ٢٦٩)، ومعاني النحو: (١/ ١١٧-١١٨).

(٢) خلافًا لما جاء في سورة البقرة حيث نودوا نداء مباشرًا؛ إذ كانوا حاضرين مستقرين في المدينة.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (س ف ر)، وانظر: الفروق اللغوية: (٣٢٦).

(٤) ينظر: تفسير الآلوسي: (٢٨/ ٩٥).

فصارت الجملة غير مفتقرة إلىٰ ما قبلها، مصرِّحةً بلفظ الجلالة، وفيه من التحذير من جلاله -سبحانه- ما لا يخفىٰ، وقال: ﴿لَا﴾ فأتىٰ بالأداة الأعم الأشمل(١)، ثم أشعر بعلة ضلالهم وهي الظلم، والظلم: «وضع الشيء غير موضعه تعدِّيًا»(٢)، ومَن جاءه دين الله ووحيه فلم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فلا شك أنه قد ظلم، ثم لاحِظ دخول النفي علىٰ المضارع؛ إذ به عم النفي الأزمنة كلها(٣)؛ فالله لا يهديهم أبدًا، ومع ذلك فإنه لم يعلق الحكم بالظالمين، وإنما قال: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فجعل هؤلاء القوم راسخين في هذا الوصف(٤)، ونبَّه ضِمنًا أن من يقع منهم الظلم دون أن يرسخ فيهم لا ينالون هذا الوعيد.

ثم اقترب الخطاب من اليهود لكن دون أن يصل إلىٰ التصريح المباشر -فهُم أقل من ذلك بعد ما وقع ما وقع منهم في خيبر وغيرها- حيثُ أُمِرَ النبي ﷺ بالكلام معهم، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ وأُمر أن يناديهم بوصفٍ لم ينادَوا بمثله في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾، أي: «تابُوا»(٥)، وجاء عند الراغب: «قال بعضهم: يَهُودُ في الأصل مِن قولهم: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وكان اسمَ مدح، ثم صار

(١) انظر ما سيأتي قريبًا: (٢٣٩) هامش (٣).

(٢) مقاييس اللغة (ظ ل م).

(٣) انظر ما سيأتي قريبًا: (٢٣٩) هامش (٣).

(٤) نبَّه ابن عاشور غير مرة أن «إِجْرَاءَ الْوَصْفِ عَلَىٰ لَفْظِ قَوْمٍ يُومِئُ إِلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ الْوَصْفَ سَجِيَّةٌ فِيهِمْ، وَمِنْ مُكَمِّلَاتِ قَوْمِيَّتِهِمْ، فَإِنَّ لِلْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ خَصَائِصَ تُمَيِّزُهَا وَتَشْتَهِرُ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦]، وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ»، التحرير والتنوير: (٢/ ٨٩)، وانظر علىٰ سبيل المثال: التحرير والتنوير: (٦/ ٢٦٧)، (٩/ ٨٢).

(٥) تفسير الطبري: (٢/ ٣٢).

بعد نسخ شريعتهم لازمًا لهم وإن لم يكن فيه معنىٰ المدح...»[1]، فعلىٰ هذا الوجه في التسمية يكون في الإتيان به في هذه الآية تعريضٌ بهم[2] حيث لم يلتزموا بما ادَّعَوه من توبة وإنابة، بل كان حالهم وقت نزول الآيات علىٰ الضد من ذلك.

ثم قال لهم سبحانه: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ فجاء الرد علىٰ دعواهم ولايةَ الله كاشفًا بطلانها أشد الكشف بما يتناسب مع حالهم التي انكشفت والتي سبقت الإشارة إليها مرارًا؛ فقد جعلت دعواهم مجرد زعم، و«الزَّعْمُ: حكاية قول يكون مظِنَّة للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كلِّ موضع ذُمَّ القائلون به»[3]، بل علقت بأداة الشرط ﴿إِن﴾ فصوَّرت زعمهم الذي وقع في صورة ما لا يكون إلا علىٰ سبيل الفرض والتقدير، وكأن المعنىٰ: لم يبق لزعمكم واقع يؤيده، فحقُّه ألَّا يكون وأن يُقتلع من أصله[4]، وقد جاء فعل الشرط ﴿زَعَمْتُمْ﴾ ماضيًا فأكَّد تحقق وقوع الزعم، ثم أتىٰ بالكلام مؤكِّدًا فقال: ﴿أَنَّكُمْ﴾ مما يشعر بتمسكهم بقولهم الذي ما هو إلا مجرد زعم، وقال: ﴿أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ بما تحمله هذه النسبة من افتخارٍ باطل يكذِّبه جواب الشرط؛ فهو أشد في إظهار بُعدِ زعمهم ودعواهم عن الحقيقة، ثم تمَّم[5] فأطنب بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ فزاد في بيان بطلان دعواهم؛ إذ لم يكتفوا بأنهم أولياء لله، بل جعلوا ذلك كأنه أمر انفردوا

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (هود)، وانظر احتمالًا آخر في سبب تسميتهم في: التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢١٥).

(٢) وقد أشار إليه في الكشاف، وأوضحه الطيبي أتم إيضاح، انظر: الكشاف: (١٥/ ٤١١)، فتوح الغيب: (١٥/ ٤١١- ٤١٢)

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (ز ع م).

(٤) قارن بحاشية الشهاب: (٩/ ١٧٣- ١٧٤).

(٥) مضىٰ تعريف التتميم من قبل: (٢٢٧).

به عن سائر الناس[(١)]، وتعريف ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للاستغراق الحقيقي[(٢)]؛ فكل الناس بلا استثناء -في زعمهم- دونهم في المنزلة، محرومون من ولاية الله لهم؛ فهذا أدل علىٰ شدة بطلان زعمهم، ثم علق الشرط بأمرهم أمرَ تعجيز لهم بأن يتمنوا أمرًا يعارض كلَّ آمالَهم وهو الموت -الذي فروا منه في خيبر وأثبتوا أنهم أقلُّ مِن أن يعرِّضوا أنفسَهم لخطر مواجهته-، وفي التعبير بـ(إنْ) في قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ تشكيكٌ في صدقهم كما لا يخفىٰ، كيف وما نزلت السورة إلا وقد ظهر كذبهم وخداعهم؟!

ثم قال تعالىٰ مؤكِّدًا لِما سبق وزيادةً في كشف حالهم البئيسة وأفعالهم الخسيسة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولا شك أن افتضاح حالهم بعد خيبر يناسبه عموم الأزمان الذي تختلف به (لا) عن (لن)[(٣)]، والتعبير بالمضارع جعل النفي متجددًا، كيف لا وأفعالهم السيئة متجددة متكررة؟! وجاء الإطناب بالتتميم[(٤)] في قوله: ﴿أَبَدًۢا﴾ فزاد الجزم بنفي وقوع ذلك منهم،

---

(١) انظر المفصل في تفسير القرآن: (١٩٥٦).

(٢) المفصل في تفسير القرآن: (١٩٥٦).

(٣) انظر التفريق بينهما مفصلًا في: معاني النحو: (٣/ ٣٦٨)، مع ملاحظة وجود فروق أخرىٰ لم أشأ الإشارة إليها لطول الخلاف فيها، وليس المقام مقام تحريرها، كما أن هذه الآية مع التي قبلها تشبه آيتَي سورة البقرة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥﴾، لكن المقارنة بينها تُخرج البحث عن مقصوده، وهذا ليس الموضع الوحيد في السورة الذي يحتاج إلىٰ مقارنة، وستأتي الإشارة في توصيات البحث إلىٰ حاجة آيات المتشابه اللفظي في سورة الجمعة إلىٰ دراسة مستقلة بالنظر إلىٰ ملابسات النزول.

(٤) مضىٰ تعريف التتميم من قبل: (٢٢٧).

كما أن الباء في ﴿بِمَا﴾ بدلالتها علىٰ السببية أظهرت المانع الحقيقي لهم من ذلك التمني، وهو أفعالهم التي ذاعت وفشت ودلَّت علىٰ شدة خبثهم، ثم إن الاسم الموصول (ما) في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما فيه من إبهام وشمول يذكِّرُ -في هذه السورة خصوصًا- بأحداث سابقة كثيرة ظاهرةٍ وخفية أساءوا فيها أيّما إساءةٍ، فصار تمنِّي الموت معها غير متصور منهم أصلًا، وكأن استعارة التقديم للعمل[1] زاد من تصويره محسوسًا مشاهَدًا، مع بيانه لعلة كرههم الموت؛ فقد قدموا لما بعد موتهم ما لا يمكن أن يتمنوا لقاءه، كما أن التعبير عنهم بالأيدي علىٰ طريقة المجاز المرسَل الذي عَلاقته الجزئية[2]؛ لأن الأيدي هي أكثر الجوارح عملاً - مناسبٌ في هذا السياق للتذكير بتحريفات كتبوها بأيديهم، وبمحاولات متعددة اقترفتها تلك الأيدي لقتل رسول الله ﷺ[3]، وجاء جمع (الأيدي) مناسبًا للحديث عن الجماعة، ولعله مع ذلك يشير إلىٰ تعاضد تلك الأيدي علىٰ المكر والكيد.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ففي ذكر لفظ الجلالة إظهار في مقام الإضمار، وبه صارت الجملة غيرَ مفتقرة إلىٰ ما قبلها مصرِّحةً بلفظ الجلالة، وفيه من التحذير من جلاله -سبحانه- ما لا يخفىٰ، ثم أخبر عن نفسه -سبحانه- بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في صيغة (فَعيل) مِن الدلالة علىٰ سَعة العلم، وبما في العِلم من التعلق بالأمور الظاهرة؛ خلافًا للخِبْرة المتعلقة بالأمور الخفية[4]، وهو عليم خبير سبحانه، لكن الحديث هنا عن قوم ظهَر ظلمُهم، بل قد غَدَوا مثَلًا يُضرب، فكان

(١) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢١٨).

(٢) يقارن بالتحرير والتنوير: (٢٨/ ٢١٨) حيث لم يربط بملابسات النزول.

(٣) حدث ذلك أكثر من مرة، انظر علىٰ سبيل المثال: صحيح البخاري: (٣١٦٩)، وصحيح مسلم (٤٥) - (٢١٩٠)، وسيرة ابن هشام: (٣/ ٢١٠)، ٣٦٧).

(٤) انظر: المقصد الأسنىٰ: (١٠٣)، والفروق اللغوية: (١٠٨).

اسم (العليم) بالمقام أنسب، ثم علَّق العلم بالظالمين، فأظهر في مقام الإضمار، وأكّد هذه الصفة الظاهرة فيهم والتي ذُكرت في الآية الخامسة قريبًا، وكأن في هذا التكرار والإظهار تحذيرًا من الظلم الذي يدخل فيه الانصراف عن الخُطبة وترْكِ الرسول ﷺ قائمًا يخطب؛ إذ الظلم وضعُ الشي في غير موضعه تعدِّيًا[1].

ثم أمر النبي ﷺ بالكلام معهم ولم يخاطَبوا مباشرةً -للنُّكتة التي سبقت قريبًا في الآية الخامسة- فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾، لكن أسلوب الحديث معهم مِن قِبلِ النبي ﷺ كان إنشاءً طلبيًّا في الآية السابقة، وجاء في هذه الآية خبرًا مؤكدًا؛ فبعد أن أمروا هناك بتمني الموت فلم يستجيبوا -وأنَّىٰ لهم الاستجابة؟!- أُخبروا هنا بأن هذا الذي رفضوا تمنِّيه لابد أن يقع، فقال تعالىٰ مُعلِّمًا نبيَّه ﷺ ما يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾، وهي حقيقةٌ يؤمن بها اليهود وغيرهم، لكنها أُكِّدت بـ(إنَّ) والجملةِ الاسمية تنزيلًا لهم منزلةَ المنكِرين؛ إذ تصرفاتهم تشبه تصرفات المنكرين، وفيه مزيد لومٍ لهم إذ غابت عنهم البدَهيَّات، مع أنهم الذين حمِّلوا التوراة، وقد أظهر الموت في مقام الإضمار لأهميته، وهو الذي يشغل ذهنهم ويفرون منه، مع أن هذا الإظهار جعل الجملة مستقلة تصلح للاستشهاد بها وحدها، كما قُدِّم ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ كذلك تعجيلًا لهم بما يخيفهم، ثم تمَّم الكلام وأطنب[2] بوصف الموت بأنه ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾؛ فجاء وصفًا مناسبًا لواقعهم بما في ﴿ٱلَّذِى﴾ من الخصوصية والتحديد اللَّذيْن يشعران أن الموت ماثِلٌ أمام أعينهم؛ مما يدل علىٰ شدة جزعهم وتكالبهم علىٰ الدنيا، وبما في المضارع من الدلالة علىٰ تَكرار ذلك منهم، وقد كانوا -كما تشهد أحداث السيرة النبوية- يفرُّون من الموت مرةً بعد أخرىٰ في كل حادثة يُنازلون فيها المسلمين، مع ما في الموصول

(١) مضىٰ توثيقه قريبًا: (٢٣٧).

(٢) مضىٰ تعريف التتميم من قبل: (٢٢٧).

من تنبيههم علىٰ خطئهم في فرارهم[١]، وفي قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ جاءت الفاء فربطت ملاقاةَ الموت بالفرار منه كما يربط الشرط وجزاؤه[٢]، وفيها مع ذلك إشارة إلىٰ سرعة لحاق الموت بهم[٣]، وتكررت (إنَّ) فزادت الأمر توكيدًا، وكأن كل هذه المؤكِّدات تُشعر بشدة حرص اليهود علىٰ الحياة حتىٰ نزِّلوا منزلةً بعيدة في الإنكار احتاجوا معها إلىٰ كل هذه المؤكِّدات.

ومِن العجيب في الآية هذا التصوير للموت الذي سيلقونه عن طريق الاستعارة التمثيلية، فقد شبَّهت حالتهم مع الموت بمن يهرب من شخص فإذا به يلاقيه أمامه، وكأنهم في عالم أوهامهم لا يرون الموت ويظنون أنهم قادرون علىٰ الإفلات منه، فتأتي الآية لتريهم الموت في صورة حيَّة محسوسة، فهُم في حرصهم علىٰ البُعد عن أسباب الموت رغم أن الموت سيصيبهم ولابد، وقد استعير الفرار لشدة الحذر[٤] فأشعر بالمباعدة بسرعة[٥]، وجاء الفعل مضارعًا فدل علىٰ التكرار، وقد يلمح في استعارة الملاقاة هنا معنىٰ المفاجأة[٦]، وهذا يناسب الغفلة التي استولت عليهم، فلم يعُدْ لقاء الموت متصورًا عندهم، ويلاحظ أنه عبر عن فرارهم بالفعل ﴿تَفِرُّونَ﴾، وعن ملاقاة الموت لهم بالاسم ﴿مُلَٰقِيكُمۡ﴾ فإن كان فرارهم متكررًا إلا أن الموت ثابت لا مناص منه ولا مَحيد عنه.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢١٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢١٩).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: (٩/ ١٧٤)، حاشية الشهاب: الموضع نفسه.

(٤) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢١٩).

(٥) انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرر - فرفر).

(٦) لأن: الملاقاة مقابلة الشيء، ومصادفته معًا، وقد تطلق علىٰ أحد المعنيين دون الآخر، مفردات ألفاظ القرآن (لقىٰ).

وبعد هذا التخويف المناسب لهذه القلوب الغافلة الفارَّة من الموت قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ﴾ فزاد الأمر تهويلًا ﴿تُرَدُّونَ﴾ فأشعر بناء الفعل لِما لم يسمَّ فاعله إلىٰ أن الذي سيردهم معلوم لا يشاركه في ذلك الرد أحد، ولا يدفع أمره مخلوق، وأن الأمر فوق طاقتهم واختياره وأنهم في تلك الحالة مسيرون لا مخيرون، فلِمَ الفرارُ إذن؟!

و﴿إِلَىٰ﴾ بدلالتها علىٰ الانتهاء تشعر أن فرارهم المتكرر لم يكن له معنىٰ، بل كان عبثًا؛ إذ لابد لهم من هذه النهاية، ولا يخفىٰ ما في التعبير بـ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ من الإشعار أن كل ما فعلوه مع سيد ولد آدم ﷺ سرًّا وجهرًا لا يخفىٰ علىٰ من سيردون إليه، ثم بيَّن سبحانه ما سيحصل لهم عند لقاء عالِم الغيب والشهادة بيانًا متناسبًا مع كل ما سبق من تخويف فقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بما في الفاء من الدلالة علىٰ سرعة وقوع الأمر، وما في الإنباء من الإشعار بعِظم الخبر(١)، وأيُّ أمر أعظم من تحديد المصير الأخير؟! وبما في: (ما) من الدلالة علىٰ الشمول لأعمالهم كلها، ودخول ﴿كُنتُمْ﴾ من الدلالة علىٰ الرسوخ في هذه الأعمال، خاصة مع الفعل المضارع ﴿تَعْمَلُونَ﴾ المفيد للتكرار المنبئ عن الكثرة، فلخص كل تاريخهم البغيض الطويل، تلخيصًا يشعرهم بمرارة ذلك اللقاء.

وهكذا ختم الكلام مع اليهود بتذكيرهم بنهاية الطريق الذي اختاروه بعد أن حمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، وفي هذا الكلام الذي خوطب به اليهود وقد بَعُدُوا عن المدينة أكبَرُ عظة للمسلمين كي لا يسلكوا نفس الطريق، بل فيه تهيئة لهم لتلقي أوامر الله المتعلقة بيوم الجمعة، وهنا توجَّه الخطاب إليهم كما سيتبين بالمطلب الرابع.

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن: (نبأ).

المطلب الرابع:
أحكام صلاة الجمعة، والتنبيه على ما وقع فيها

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾.

هنا بدأ الشروع في المقصود من تنبيه الصحابة علىٰ ما حدث من خطأ كان سببًا لنزول آخر السورة، و«هَذِهِ الْآيَاتُ هِيَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّورَةِ، وَمَا قَبْلَهَا مُقَدِّمَاتٌ وَتَوْطِئَاتٌ لَهَا»(١)، ومع ذلك فإن الآيتين الأُوليين من هذا المقطع بمثابة تمهيد للآية الأخيرة، وقد اجتمع في هذا التمهيد ثلاثة أمور هي: تعظيم أمر صلاة الجمعة وتفخيمها، والحث علىٰ الاهتمام بها، والإشارة إلىٰ تخفيفها علىٰ المكلَّفين ويُسرها، وكلُّ الأمور الثلاثة مناسبٌ للعتاب علىٰ الحادثة التي وقعت، فالخَلل وقع في أمرٍ يستحق التعظيم فلا يليق التهاون به، وقد حثَّ الله المؤمنين علىٰ العناية به، وهذا يضاد ما حدث من انصراف، وهو مع عظمته والحث عليه ميسَّرٌ ليس فيه مشقة علىٰ العباد، فالتقصير فيه أحق بالعتاب، مع ملاحظة أن هذه الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه العبادة العظيمة تناسب العهد المدني بل هي من خصائصه الكبرىٰ، وقد ظهر هذا كله في نظم الآيتين التاسعة والعاشرة جليًّا؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾.

(١) التحرير: (٢٨/ ٢١٩)، وانظر: نظم الدرر: (٧/ ٥٩٩).

فقد بدأ بالنداء، وهو طلب للإقبال، مما يشعر بأهمية ما بعده، وجاء بالأداة التي هي أمُّ الباب (يا) مما يمكن معه دخول كل من يتأتىٰ خطابه ويصلح نداؤه؛ فيدخل الطائعون المقيمون علىٰ الطاعة الذين لم ينصرفوا عن الخطبة تنشيطًا لهم وحثًّا علىٰ الثبات، ويدخل الذين انصرفوا إيقاظًا لهم وحثًّا علىٰ التدارك، ويدخل غيرهم من المؤمنين علىٰ اختلاف أحوالهم[1]، «وعلىٰ القول المشهور[2] أنها للبعيد فإنه يزيد من إظهار عظمة المنادي -سبحانه-، وعظمةِ ما نودي لأجله[3]، مع ما قد يكون فيه من حثٍّ علىٰ الاستجابة؛ إذ المخاطَبون بعيدون يحتاجون إلىٰ التزكّي ليحصل لهم القرب[4]، كما أنَّ في (أيُّها) إبهامًا مشوِّقًا لما بعدها، ومرسِّخًا له بعد البيان، وقد جاء الإيضاح بالصفة التي تستلزم الامتثال -وهي الإيمان-، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بصلته التي جاءت فعلًا ماضيًا يشعر بمجرد وقوع الحدث، فيناسب هذا الخطاب العام، بخلاف التعبير بالوصف فإنه يدل علىٰ التمكن في الإيمان، مع أن في الصلة كذلك تعليلًا للأمر بالسعي وهو الإيمان، وهو هنا كالمقابل للصلتين السابقتين: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾[5].

ثم قال -سبحانه-: ﴿إِذَا﴾ مما يدل أن هذا الأمر متكرر الحدوث، وهذا متسقٌ مع ما مر من عمومات تُشعر بعموم هذا التكليف، فلابد من امتثال كل من يشمله الخطاب في جميع الأحوال، وقد بني الفعل للمفعول في قوله: ﴿نُودِيَ﴾ فعمَّ

---

(١) انظر في هذا: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: (١٥٩).

(٢) انظر في ترجيح هذا القول: الأدوات البلاغية في القرآن الكريم: (٨٤ فما بعدها).

(٣) انظر المرجع نفسه: (٩٧، ١١٣).

(٤) ينظر: نظم الدرر: (٧/ ٥٩٩).

(٥) ينظر: فتوح الغيب: (١٥/ ٤١١).

كل منادٍ[(١)]، وهذا فيه إشارة إلىٰ أن شأن مَن آمن أن يجيب المنادي للصلاة بغضِّ النظر عن ذات المنادي؛ إذ الصلاة قد اكتسبت مكانتها من ذاتها؛ لأنها صلة بين العبد وربه، والنداء المقصود في الآية هو النداء عند قعود الإمام للخُطبة[(٢)]، وفي إدخال الخطبة في مسمىٰ الصلاة إشارة إلىٰ أنها بديلة عن الركعتين اللتين تنقص بهما الجمعة عن الظهر[(٣)]، وهو يعظم من أمر الخطبة بلا شك، وفيه -أيضًا- إشعار بأن انفضاضهم الآتي ذِكرُه في الآية الأخيرة من السورة كان انصرافًا عما هو في حُكم الصلاة، وقد جاءت اللام في ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾ للتعليل[(٤)]؛ فالنداء سببه حضور وقت الصلاة، والنداء لا يكون إلا لعظيمٍ، ففيه إشارة إلىٰ تعظيم هذه الصلاة، والإتيان بـ: ﴿مِن﴾ يُشعر بأن الصلاة جزء من اليوم لا تستغرقه، وهذا تخفيف وتيسير لهذه العبادة؛ إذ لا تستغرق اليوم كله[(٥)].

و﴿يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ يُذَكِّرُ بالنظر إلىٰ أصل التسمية إلىٰ معانٍ متعددة عظيمة تعظم من شأن هذه الصلاة ولا شك، وقد لخص جملةً منها ابنُ كثير فقال: «إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً؛ لِأَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجَمْعِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ مَرَّةً بِالْمَعَابِدِ الْكِبَارِ، وَفِيهِ كَمُل جَمِيعُ الْخَلَائِقِ، فَإِنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ من الستة التي خلق الله فيها السموات وَالْأَرْضَ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَسْأَلُ الله فِيهَا خَيْرًا

---

(١) نظم الدرر: (٧/ ٥٩٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٦٣٧)، زاد المسير: (٨/ ٢٢

(٣) إمعان النظر في نظام الآي والسور: (١٦٢-١٦٣)، وانظر: المغني، لابن قدامة: (٢/ ٢٢٥).

(٤) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢١٦).

(٥) علىٰ القول بأن (من) تبعيضية، وقيل: إنها بمعنىٰ (في)، ينظر: نظم الدرر: (٧/ ٥٩٩)، التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٦).

إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ كَمَا ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ»(١).

وقد لَمَح البقاعي من ذكر ﴿يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ تناسبًا مع ما سبق من ذكر اليهود فقال: «أي اليوم الذي عرض علىٰ من قبلنا فأَبَوْهُ فكانوا كمَثل الحمار يحمل أسفارًا، وادَّخره الله لنا ووفقنا لقبوله»(٢)، والتعريف بالألف واللام في ﴿ٱلۡجُمُعَةِ﴾ للعهد العلمي؛ مما يُشعر أنهم كانوا يعرفون الجمعة بهذا الاسم قبل نزول الآيات(٣)، وقوله: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ جواب الشرط وهو المقصود بالكلام، والأمر بالسعي -علىٰ الخلاف في المراد به هنا(٤)- مُشعِر بالحث علىٰ الجدِّ والاجتهاد في إجابة النداء لهذه العبادة العظيمة، وقد قال قتادة في تفسير السعي: «أن تسعىٰ بقلبك وعملك»(٥)، وفي ﴿إِلَىٰ﴾ بما فيها من الدلالة علىٰ الانتهاء إشارة إلىٰ الهدف والغاية وهي الوصول إلىٰ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إظهار في مقام الإضمار نبَّه إلىٰ مقصود صلاة الجمعة، وأهم ما فيها وهو الذكر، ومع الخلاف في تحديد المراد بالذِّكر هنا هل هو الصلاة أم الخطبة(٦) فإنه «لَا شَكَّ أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا خَرَجَ ابْتَدَأَ بِالْخُطْبَةِ فَكَانَتِ

---

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٢٧٤- ٢٧٥)، وانظر: زاد المسير: (٨/ ٢٢- ٢٣).

(٢) نظم الدرر: (٧/ ٥٩٩)، ولعله اقتبسه من إشارة الزمخشري الموجزة إلىٰ التعريض باليهود في ذكر الجمعة، ينظر: الكشاف: (١٥/ ٤١١).

(٣) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢١٩-٢٢٠)، خلافًا للمفصل في تفسير القرآن: (١٩٥٨) حيث جعلها للاستغراق العرفي، وانظر في مشروعية الجمعة قبل نزول الآيات بل وقبل نزول السورة ما سبق: (٢٠٩).

(٤) ينظر: زاد المسير: (٨/ ٢٣)، وقد قال الطبري: «وأصل السعي في هذا الموضع العمل»، تفسير الطبري: (٢٢/ ٦٣٧).

(٥) تفسير الطبري: (٢٢/ ٦٣٧).

(٦) زاد المسير: (٨/ ٢٣)، واقتصر الطبري علىٰ القول بأنها الخطبة، تفسير الطبري: (٢٢/ ٦٤٢).

الْخُطْبَةُ مِنَ الذِّكْرِ»(١)، وما أحسنَ وأخصر قولَ البقاعي هنا: «أي الخطبة والصلاة المذكِّرة بالمَلك الأعظم الذي من انقطع عن خدمته هلك»(٢)! وإذا استحضرنا صفات الله المذكورة في مطلع السورة ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ عَظُم شأن الخطبة والصلاة في قلوبنا جدًّا.

ثم نصَّ علىٰ مسألةٍ مفهومة من الكلام السابق فقال: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ إذ ترْك البيع مفهوم من السعي إلىٰ الصلاة، والتنصيص علىٰ ترك البيع لكثرة الانشغال به مع أن فيه نظرًا إلىٰ سبب نزول السورة(٣)، ولعل الأليق بمقام الحثِّ علىٰ الاهتمام بالجمعة قولُ من قال: إن تخصيصه «لِما فيه من إغراء؛ فالقدرة علىٰ ترك البيع عند النداء يجعل القدرة علىٰ غيره أيسر»(٤)، والتعبير بالفعل (ذَرُوا) دون (اتْرُكوا) يُشعر بقلة الاكتراث بهذا البيع المتروك؛ لأن ما يسعىٰ إليه المصلِّي أعظمُ بكثير، وعدم الاكتراث فيه جانبٌ قلبي يتناسب أشد المناسبة مع السعي الذي أساسه القلوب، وكِلا الأمرين يتعاضد في انصراف القلب عن كل شاغل عن هذه الصلاة العظمىٰ(٥).

والتعريف في ﴿ٱلۡبَيۡعَ﴾ يحتمل العهد العلمي، فهو مذكِّر بالبيع وما له من مكانة وحضور في القلوب، كما يحتمل استغراق الأفراد(٦)؛ فهو مُشعر بأن البيع بجميع

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٥- ٢٢٦).

(٢) نظم الدرر: (٧/ ٦٠٠)، وهو نظر لطيف منه إلىٰ حادثة الانصراف.

(٣) الكشاف: (١٥/ ٤١٧)، التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٦).

(٤) غرائب الإعجاز: (٤٣٣).

(٥) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن (وذر)، وقد لمح البقاعي نكتة أخرىٰ مع اعتماده علىٰ نفس المعنىٰ لـ: ﴿وَذَرُواْ﴾، انظر: نظم الدرر: (٧/ ٦٠١)، بينما يرىٰ د/ محمد حسن جبل أن (ذروا) بمعنىٰ (اتركوا) بلا فرق، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (١/ ٤٦٦- ٤٦٧).

(٦) اقتصر علىٰ الثاني في التفسير المفصل: (١٩٥٨).

أشكاله وأنواعه -ومهما كان في الظاهر مُربحًا- يظل دون مستوىٰ أن يكترث به إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، ولعل التشريك بالواو بين الأمرين: ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾ ﴿وَذَرُوا۟﴾ يشعر أنهما مطلوبان معًا، فلا يكفي أن تسعىٰ ظاهرًا إلىٰ ذكر الله حتىٰ تذر بقلبك وقالبك البيع.

ثم زاد الأمر تفخيمًا بأن جاء الكلام علىٰ طريقة الاستئناف البياني -شبه كمال الاتصال-، وكأن سائلًا سأل: لماذا أسعىٰ إلىٰ ذكر الله وأذر البيع؟ فأجيب: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهذا يشعر بأن الكلام السابق يجعل النفوس المؤمنة تتطلع إلىٰ ما بعده، وترغب في معرفة علته، وقد افتتح الجواب باسم الإشارة الدال أن الخيرية لصلاة الجمعة ظاهرة يُشار إليها إشارةَ المحسوس، وأنها محل العناية، مع ما في إشارة البُعد من الإشعار بأن المأمور به في الآية له منزلة عالية لا يرتقي إليها كل أحد، وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾ اسم تفضيل، ولم يذكر المفضل، وكأنه أقل مِن أن يذكر، وزاد الإشعار بالفضل مع الامتنان فقال: ﴿لَّكُمْ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بما تحمله ﴿إِن﴾ في هذا المقام من التشكيك يُشعر بأن هذه الخيرية خفيت علىٰ بعض المخاطَبين، وعلىٰ هذا يحمل تعريضًا بالمنصرفين وكأنهم لم يدركوا تلك الخيرية، والتعبير بالعلم دون المعرفة، يشعر أن تلك الخيرية مما لا يدرَك بمجرد المعرفة التي لا تكون إلا حضورية بدَهية، بل يحتاج إلىٰ علم يدرك بداهة أحيانًا، ويحصل بالاكتساب في أحيانٍ أخرىٰ[1]، مع ما في المضارع من الدلالة علىٰ التجدد التي قد تفيد هنا أن إدراك الخيرية يزداد ويتجدد بما يعلمه المسلم من فضائل هذه العبادة وما يؤديه منها، وقد حذف مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فاحتمل التقديرَ وعدمَه[2]، فعلىٰ التقدير يكون العتاب ألطفَ لكون العِلم الذي فاتهم هو ما يتعلق بفضل صلاة

(١) انظر: العلم والفقه والمعرفة فقه دلالتها واستعمالها في القرآن الكريم: (٢١- ٢٢).

(٢) تفسير البيضاوي: (٩/ ١٧٦).

الجمعة، بخلاف القول بعدم التقدير فإنه يكون من باب تنزيل المتعدي منزلة اللازم، فيكون العِلم مفقودًا منهم بالكلية، وهذا أشد في الذم؛ فلعل الأول بالنظر إلىٰ عموم أسلوب السورة وما فيه من التلطف بالعتاب أولىٰ(١).

ثم جاءت الآية التالية لتبين الحُكم بعد أن تُقضىٰ الصلاة، وفيه مزيد إشعار بيُسر هذه العبادة الجليلة؛ فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾، يقول ابن عاشور ﷺ: «وَإِنَّمَا أُعْقِبَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ تَنْبِيهًا عَلَىٰ أَنَّ لَهُمْ سَعَةً مِنَ النَّهَارِ يَجْعَلُونَهَا لِلْبَيْعِ وَنَحْوِهِ مِنِ ابْتِغَاءِ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ، فَلَا يَأْخُذُوا ذَلِكَ مِنْ وَقْتِ الصَّلَاةِ»(٢)، وهذا يؤكِّد أن في الآية تيسيرًا علىٰ المكلَّفين، وهذا ما يدل عليه نظم الآية بجِلاء، بما في أداة الشرط ﴿إِذَا﴾ من الإشعار بتكرر الحدوث، وهذا يخفف من ثقل الصلاة والعجلة إلىٰ اللهو والتجارة، فالصلاة لابد أن تُقضىٰ ويُفرغ منها، وبما في بناء الفعل للمفعول من الإشعار بسهولة الأمر، وقوله: ﴿ٱلصَّلَوٰةُ﴾ لطيف للغاية؛ فقد كان الأمر بالسعي إلىٰ ذكر الله، لكن الذي قُضي وتم هو الصلاة فقط، أما الذِّكر فمستمرٌّ كما سيأتي الأمر به قريبًا، وأما قوله -سبحانه-: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ فظاهره الأمر المقتضي للوجوب، والمقصود به هنا الإباحة، لكن تصويرها في صورة الأمر أعطاها أهمية وقوة، والتعبير بالانتشار بما في مادته من الدلالة علىٰ التصرف(٣)، وما في صيغة (الافتعال) من الدلالة علىٰ الاجتهاد والتكلف(٤) = مزيدُ حثٍّ علىٰ هذا الأمر، مما يحقق توازنًا بين السعي

---

(١) قارن بحاشية الشهاب: (٩/ ١٦٩، ١٧٦).

(٢) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٧).

(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (نشر).

(٤) انظر: نظم الدرر: (٧/ ٦٠١).

إلىٰ الصلاة والانتشار في الأرض، وقد زاد هذا الحث قوة بقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بما في ظرفيةِ حرف الجر (في) مِن الإشارة إلىٰ الدخول في أعماق الأرض، وبما في (ال) الاستغراقية من الشمول، وكل هذا يشعر بأن ما حَرُمَ وقت الصلاة قد أبيح وصار بإمكان الإنسان أن ينتفع به.

وأما قوله: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ فهو من الإطناب بعطف الخاص علىٰ العام، مما يشعر بأهمية هذا الخاص، خاصة وأن النفوس نُهيت عنه عند النداء نهيًا خاصًّا في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾؛ إذ المقصودُ بفضل الله هنا البيعُ نفسه، وهذا يُشعر بإحدىٰ فوائد صلاة الجمعة -والطاعة عمومًا-، وهو أن البركة تحل في البيع إذا امتثل العبد أمرَ الله، والإتيان بـ: (مِن) التبعيضية أرشدَ للقصد في الطلب، وهو متناسق تمامًا مع العتاب الآتي علىٰ الانفضاض لأجل اللهو والتجارة، ثم عطف علىٰ هذين الأمرين الدنيويين أمرًا دينيًّا قد يغفل عنه المسلم بعد الجمعة فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾، ففيه «احْتِرَاسٌ مِنَ الِانْصِبَابِ فِي أَشْغَالِ الدُّنْيَا انْصِبَابًا يُنْسِي ذِكْرَ اللهِ، أَوْ يَشْغَلُ عَنِ الصَّلَوَاتِ، فَإِنَّ الْفَلَاحَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَىٰ مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَىٰ»[1]، وقد أطنب وتمَّم الأمر بالذِّكر بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ مما يشعر بالحاجة الماسَّة إليه بحيث لا يكفي القليل منه، ولعله مع ذلك يشعر أن التقصير في هذا العمل قد يفضي إلىٰ ما ستأتي الإشارة إليه مما وقع من خلل، مع ما أفاده حرف الترجي (لعل) من جعل القلب بين الرجاء في القبولِ والخوف من الرد[2]، وما في الفلاح من الظفر بالمطلوب من مناسبةٍ للتجارة التي سيذكر الانفضاض إليها قريبًا.

(١) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٧).

(٢) باعتبار أن هذا الترجي ناظر إلىٰ المخاطب لا إلىٰ المتكلم، ينظر: نظم الدرر: (٧/ ٦٠٢).

وأخيرًا، وفي ختام السورة قال المولىٰ عز وجل في إشارة لطيفة يسيرة لما حدث في الجيل الأول والأكمل، وهي إشارة تحمل في طيَّاتها «الدعوة إلىٰ التعجب من أمرهم وإيمانهم»(١)، و«... أنَّ مَن فعل هذا ينبغي أن يصحح إيمانه»(٢)، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾، وفي الآية من لطف العتاب، ما يأخذ بالألباب؛ فعدم المواجهة واستخدام أسلوب الغَيبة أليق هنا وأرق من المواجهة بالخطاب(٣)، و(إذا) هنا قد تشعر أن رؤية التجارة أمر مجزوم بوقوعه؛ فلابد من وجود هذه الشواغل الدنيوية، لكن لا ينبغي الالتفات إليها في هذا المقام العظيم(٤)، والرؤية هنا علىٰ القول أنها بصرية رغم أنهم لا يرون اللهو والتجارة من باب أنه عِلمٌ كالرؤية؛ إذ إنهم سمعوا الصوت فانفضوا إليه، وهو أشد في العتاب من جعلها عِلميَّة؛ لأنه يجعلهم من شدة رغبتهم في ذلك الغائب جعلوه كالحاضر، فكأنهم لم يمتثلوا للأمرين: السابق

---

(١) غرائب الإعجاز: (٤٣٣- ٤٣٤).

(٢) غرائب الإعجاز: (٤٣٤).

(٣) يرىٰ الطاهر ابن عاشور ﷺ أن هذا الالتفات يشعر بالإعراض عنهم توبيخًا، ينظر التحرير: (٢٨ / ٢٢٧-٢٢٨) ولعل ما ذكرته أليق لسببين: الأول: أن الخطأ كان عابرًا غير مقصود فيناسبه التلطف أكثر من التوبيخ، الثاني: أن أسلوب السورة قائم من مطلعها علىٰ التعريض وعدم المواجهة، والله أعلىٰ وأعلم.

(٤) في دلالة (إذا) هنا خلاف طويل ما بين جعلها ظرفًا للزمان المضي مجردًا عن معنىٰ الشرط؛ لأن هذا الانفضاض مضىٰ، التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٩)، أو جعلها علىٰ بابها -وهو بعيد-، أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط: (٤٠٥- ٤٠٧)، وقد قيل: إن الحادثة تكررت، لكن لم يثبت ذلك بإسناد مرضي، انظر: تفسير ابن كثير-وأشار إلىٰ ضعفه بقوله: «زعم»-: (٧/ ٢٧٩)، التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٨)، الاستيعاب في معرفة الأسباب -وهو الذي بين ضعفه-: (٣/ ٤٠٩- ٤١٠)، موسوعة التفسير بالمأثور: (٢١/ ١٤٩).

﴿فَٱسْعَوْا﴾ ﴿وَذَرُوا۟﴾ تمامَ الامتثال[1]، و﴿تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ نكرتان في سياق الشرط فتفيد العموم، وهذا العموم متناسب مع العتاب ومع (إذا)، وقد تقدمت التجارة على اللهو من باب التدلي[2] من الأعلى إلى الأدنى، وهو الأليق هنا؛ لأنه في بيان الخطأ، ولا شك أن الانفضاض إلى اللهو أشد بُعدًا عن الصواب، «وَلَعَلَّ التَّقْسِيمَ الَّذِي أَفَادَتْهُ ﴿أَوْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ تَقْسِيمٌ لِأَحْوَالِ الْمُنْفَضِّينَ؛ إِذْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ مِنْ ذَوِي الْعَائِلَاتِ خَرَجُوا لِيَمْتَارُوا لِأَهْلِهِمْ، وَبَعْضُهُمْ مِنَ الشَّبَابِ لَا هِمَّةَ لَهُمْ فِي الْمِيرَةِ وَلَكِنْ أَحَبُّوا حُضُورَ اللَّهو»[3]؛ فعليه يُعدُّ مِن المناسبة للحادثة التي نزلت فيها الآية.

وقوله: ﴿ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ بما في مادته من الدلالة على الكسر والتفريق[4] يزيد من العتاب؛ إذ يذكِّر بالأثر السيئ لما صدَر، وهو كالمقابل ليوم الجمعة الدال على الاجتماع، كما يشعر بصيغة (الانفعال) بالمبالغة التي تزيد من العتاب؛ إذ تدل على الحرص الذي وقع منهم -رضوان الله عليهم أجمعين-[5]، كما أن حرف الجر أشعر بأن المُنفضَّ إليه كان هدفًا لا مجرد سببٍ، وهذا يزيد العتاب كذلك، أما تأنيث الضمير وعَوده على التجارة دون اللهو فلأن التجارة هي الأهم[6]، وهذا أخف في العتاب فيما يبدو، وقد صرح بعدها في قوله: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ بفداحة الخطأ،

(١) انظر الخلاف فيها في: حاشية الجمل: (٤/ ٣٤٥)، والتفسير المفصل: (١٩٥٩).

(٢) التدلي: أن يذكر الأعلى أولًا ثم الأدنى لنكتة، شرح عقود الجمان، للسيوطي: (٢/ ١٤٥)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: (٢/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٣) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٩).

(٤) انظر: نظم الدرر: (٧/ ٦٠٢)، والمعجم الاشتقاقي: (فضض - فضفض).

(٥) أما معنى المطاوعة فالغالب عدم مراعاته في هذه اللفظة، انظر: التحرير: (٢٨/ ٢٢٩).

(٦) ينظر على سبيل المثال في النقاش في ذلك: الكشاف: (١٥/ ٤٢٠)، فتوح الغيب: (١٥/ ٤٢٠-٤٢١)، التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٧).

فإذا استحضرنا ما في مطلع السورة مِن الامتنان ببعثته ﷺ فيهم، واستحضرنا مهامَّه التي كان يقوم به زاد العتاب إيلامًا، لكنه عتابٌ يمس القلوب مسًّا رقيقًا بكل ما اكتنفه وسبقه من بداية السورة[1].

وبعد وصف ما حدث بهذه الكلمات الموجزة المُحكَمة توجَّه الخطاب إليهم، لكنه صدر بـ﴿قُلۡ﴾ وكأنهم في هذه اللحظة ليسوا أهلًا للخطاب المباشر وقد انفضوا عن ساحة الحضور، وقد أشعر التعبير عنهم بالغائب في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ﴾ بذلك، لكن العبارة هنا كانت أظهر، خاصة أنها تتناسب مع خطاب اليهود السابق في قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾[2]، والملاحظ أن ما أُمر النبي صلىٰ الله عليه بتبليغه لهم كان ظاهرًا معلومًا لديهم، لكنهم أُخبروا به لِما صدَر منهم مخالفًا لاعتقادهم من باب تنزيل العالِم منزلةَ الجاهل، ولم يأت الكلام مؤكَّدًا لأنه مجرد خطأ عابر لا يصل بهم إلىٰ أن ينزَّلوا منزلةَ المنكِر، وهو من لطيف العتاب لهم -أيضًا-، وفي قوله: ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ بما فيها من إبهام الموصول وشموله إشعارٌ بخفاء أجر الجمعة وسعته[3]، مع ما في الإضافة إلىٰ لفظ الجلالة من تعظيم ظاهر، وقد بينتِ الأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرة عِظمَ فضل هذا اليوم عمومًا، والخطبة والصلاة -خصوصًا-[4]، ورغم أن قوله -سبحانه-: ﴿خَيۡرٞ﴾ بما فيه من الدلالة علىٰ التفضيل كافٍ في الدلالة علىٰ الخيرية إلا أن التصريح بالمفضول هنا في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ زاد العتاب ونبَّه علىٰ الخطأ مرة أخرىٰ مع تغيير في ترتيب

(١) ومنهم من يراه تفظيعًا للموقف، انظر: التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٢٩)، ولكن التأمل في السورة كلها يجعله أقرب إلىٰ العتاب اللطيف مع ما فيه من تنبيه وإيلام، والله أعلم.

(٢) انظر ما سبق: (٢٤١).

(٣) انظر: غرائب الإعجاز: (٤٣٤).

(٤) ينظر ذلك مبسوطًا -علىٰ سبيل المثال- في: زاد المعاد: (١/ ٣٥٣).

الكلام، حيث قدَّم التجارة هناك لما سبق[(١)]، وأخرها هنا علىٰ أسلوب الترقي[(٢)]؛ إذ اللهو أقل شأنًا من التجارة وأبعد عن الوهم أن تكون له الخيرية[(٣)].

ثم ختمت الآية الكريمة، والسورة العظيمة بجملة جامعة نافعة، فقال ربنا: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فكان فيها حُسن اختتام بما في العطف الذي أشعر بإضافة معنىٰ جديد، والإظهار في مقام الإضمار الذي فخَّم الكلام وأعطاه استقلالًا عما قبله ليجري مجرىٰ الأمثال[(٤)]، مع التصريح بكونه -سبحانه-: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ بما فيه تعليق من القلوب بالله حُسن اختتام مع كونه مناسبًا جدًّا لسبب نزول السورة -خصوصًا-، ولآيات السورة -عمومًا-؛ فخير الرازقين هو الذي ينبغي أن يُطلَب الرزق منه -دنيويًّا كان الرزق أو دينيًّا[(٥)]-، ولا يُلتفت إلىٰ غيره عندما يأتي العباد يوم الجمعة إلىٰ بيته، وخير الرازقين هو الذي عُرِّف في مطلع السورة في قوله: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾، وخير الرازقين ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، وهذا أعظم رزق رُزقته البشرية جمعاء، وخير الرازقين هو الذي ينبغي أن تسعىٰ القلوب إلىٰ مرضاته إذا سمعت النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، والله أعلىٰ وأعلم.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين

---

(١) انظر ما سبق: (٢٥٣).

(٢) مضىٰ تعريفه: (٢١٩).

(٣) وفي حاشية الشهاب (٩/ ١٧٧): «لأنه أقوىٰ مذمة فناسب تقديمه في مقام الذم»، ولا أراه صوابًا؛ إذ المقام ليس للذم، بل لبيان الفضل، مع أنه لو كان للذم لكان الأليق الترقي من المذموم إلىٰ الأشد ذمًّا، والله أعلم.

(٤) ينظر: غرائب الإعجاز: (٤٣٥).

(٥) ينظر: غرائب الإعجاز: (٤٣٤).

الخَاتِمَة

بهذا تم ما أردت كتابتَه في هذا البحث المتواضع، أسأل الله أن يجعله نافعًا لي، ولكل من يطلع عليه، وأحب أن أسجل بعض ما توصلت إليه من نتائج، وهي:

١/ وجود بعضِ عنايةٍ عند عدد من المفسرين وغيرهم بـ«ملابسات النزول»، لكن دون توظيف ظاهر لها لاستخراج النِّكات البلاغية -غالبًا-.

٢/ لم تَجِدْ «ملابساتُ النزول» عنايتها في التوجيه البلاغي لآيات القرآن الكريم، وهذا ظاهر للناظر في هذا البحث؛ فرغم جودة التحليلات البلاغية لسورة الجمعة في الكتب والدراسات السابقة -وقد نقلتُ عنها، وانتفعتُ كثيرًا بها- إلا أنها كانت في الغالب لا تلحظ هذا الجانب المهم مع ارتباطه الظاهر بمقتضىٰ الحال الذي هو أساس البلاغة.

٣/ إمكانية استخراج نكات جديدة لم يُشِر إليها السابقون، وإضافات لطيفة علىٰ ما ذكروه، وهذا ما يمثل -بفضل الله- الإضافة التي قدَّمها هذا البحث.

٤/ وجود حاجة ماسَّة إلىٰ دراسات مماثلة لسائر سور القرآن الكريم، مما يُثري البحثَ البلاغي القرآني ويجدده.

ومن هنا يمكن أن تُستنتج توصيات البحث، وهي:

١/ إقامة عدد من الدراسات علىٰ الكتب التي اهتمت بـ«ملابسات النزول»، وأذكر منها علىٰ سبيل المثال: «التحرير والتنوير» لابن عاشور، و«التفسير الحديث» لمحمد عزة دروزة.

٢/ ضرورة تكاتف أقسام السُّنة والسيرة والتفسير من جهة، والبلاغة من جهةٍ للخروج بأعمال علمية رَصينة تخدم هذا الجانب وتجليه، خاصة أن كثيرًا من السور طال نزولها وتنوعت ملابساتها وكثرت المرويات المتعلقة بها مما يحتاج إلىٰ تعاون بين تلك الأقسام وقسم البلاغة.

٣/ إقامة دراسات بلاغية لكل سورة من سور القرآن تبني تحليلها علىٰ «ملابسات النزول»، وهذا في الحقيقة فرع وتكميل لما ذُكر في النقطة السابقة.

٤/ الحاجة إلىٰ دراسة آيات المتشابه اللفظي في سورة الجمعة دراسةً تعتمد في توجيهها علىٰ «ملابسات النزول»[(١)].

والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

(١) ينظر ما سبق: (٢٣٩) هامش (٣).

ثبت المصادر والمراجع

١ .الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف: ١٤٢٤هـ.

٢ .الأدوات البلاغية في القرآن الكريم، أد/ ظافر بن غرمان العمري، مكتبة الرشد: الرياض، الطبعة الأولىٰ: ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م.

٣ .الاستيعاب في معرفة الأسباب، سليم الهلالي - محمد آل نصر، دار ابن الجوزي: الدمام، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٥هـ.

٤ .الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل: بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٥ .أسد الغابة، عز الدين بن الأثير، دار الفكر، بيروت: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٦ .أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط (إن - إذا - لو)، محمود موسىٰ إبراهيم حمدان، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر - كلية اللغة العربية - قسم البلاغة والنقد: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٧ .إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر - فرع القاهرة.

٨ .الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٥هـ.

٩ .إمعان النظر في نظام الآي والسور، محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار: الأردن - عمان، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٠. أنوار التنزيل وأسرار التأويل - مطبوع مع حاشية الشهاب -، ناصر الدين البيضاوي، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية: بيروت - لبنان، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١١. البديع، ابن المعتز العباسي، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل: بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٢. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة: بيروت -لبنان.

١٣. البيان في عدِّ آي القرآن، أبو عمرو الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث: الكويت، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٤. تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضىٰ الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية - دون بيانات الطباعة.

١٥. تبصير الرحمن وتيسير المنان، علي المهايمي، عالَم الكتب، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٦. التبيان في البيان، الطيبي، تحقيق ودراسة: د/ عبد الستار حسين زموط، دار الجيل: بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٧. التحرير في أصول التفسير، د/ مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، الناشر: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي التابع للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمحافظة جدة، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

١٨. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - دون بيانات الطباعة.

١٩. تفسير الآلوسي = روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

٢٠. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

٢١. التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثاني: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٢. تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

٢٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، دار ابن الجوزي: الدمام، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣١هـ.

٢٤. تفسير المهايمي = تبصير الرحمن وتيسير المنان.

٢٥. تلخيص المفتاح، ضبطه وشرحه الأديب الكبير: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي: لبنان – بيروت .

٢٦. تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة الأولىٰ: ٢٠٠١م.

٢٧. الجامع الصحيح = صحيح البخاري، أبو عبد الله البخاري، خدمة: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار المنهاج: بيروت، دار طوق النجاة: بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٢٩هـ.

٢٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: د/ عبد الله التركي، دار عالم الكتب: الرياض، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٢٩. حاشية الجمل = الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية.

٣٠. حاشية الدسوقي علىٰ مختصر المعاني –ضمن شروح التلخيص–، محمد الدسوقي، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان.

٣١. حاشية الشهاب = عناية القاضي وكفاية الراضي.

٣٢. حاشية مخلوف المنياوي علىٰ حلية اللب المصون للدمنهوري علىٰ منظومة الجوهر المكنون، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ١٣٥٧هـ - ١٩٨٣م.

٣٣. حلية اللب المصون، أحمد الدمنهوري، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ١٣٥٧هـ-١٩٨٣م.

٣٤. خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تحقيق: د/ كوكب دياب، دار صادر: بيروت – لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٢٥- ٢٠٠٥م.

٣٥. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر: بيروت.

٣٦. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مطبعة المدني: القاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة: ١٤١٣- ١٩٩٢.

٣٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي، دار الفكر للنشر والتوزيع.

٣٨. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة: بيروت – مكتبة المنار

الإسلامية: الكويت، الطبعة السابعة والعشرون: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٣٩. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، دار الفكر: بيروت -لبنان، الطبعة الأولىٰ: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤٠. زهر الأكم في الأمثال والحكم، نور الدين اليوسي، تحقيق: د/ محمد حجي، د/ محمد الأخضر، الناشر: الشركة الجديدة - دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٤١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع: الرياض، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٤٢. السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفىٰ السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي: بيروت - لبنان.

٤٣. السيرة النبوية الصحيحة، د/ أكرم ضياء العمري، الناشر: مكتبة العبيكان: الرياض، الطبعة السابعة: ١٤٣٤-٢٠١٣م.

٤٤. السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة، محمد إبراهيم شقرة، مكتبة المعارف، ١٤١٨هـ.

٤٥. شرح عقود الجمان في المعاني والبيان - بهامش شرح عقود الجمان للمرشدي -، جلال الدين السيوطي، البابي الحلبي، الطبعة الثانية: ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

٤٦. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، عناية: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث: القاهرة، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٧٤. الطبقات الكبرىٰ، ابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٨. علم تأريخ نزول آيات القرآن ومصادره، د/ أحمد خالد شكري، وأ/ عمران سميح نزال، جمعية المحافظة علىٰ القرآن الكريم: الأردن - عمان، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٤٩. العلم والفقه والمعرفة فقه دلالتها واستعمالها في القرآن الكريم، د/ محمود موسىٰ حمدان، مكتبة وهبة: القاهرة، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٥٠. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي: بيروت.

٥١. عناية القاضي وكفاية الراضي، شهاب الدين الخفاجي، ضبطه، وخرج آياته وأحاديثه: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٥٢. غرائب الإيجاز والنكات في مقامات أسباب النزول، د/ محمد إبراهيم شادي – دار اليقين: مصر – المنصورة، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٩ – ٢٠٠٨م.

٥٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة: بيروت، ١٣٧٩هـ.

٥٤. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الطيبي، تحقيق: مجموعة من الباحثين – حقق الجزء المتعلق بالبحث: د/ لطفي بن محمد الزُّغير، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.

٥٥. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر –الجمل–، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسىٰ البابي الحلبي.

٦٥. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، دار الكتب العلمية: لبنان، تحقيق محمد باسل عيون السود، الطبعة: ١٤٢١ – ٢٠٠٠م.

٥٧. قضية الفصل والوصل بين المفردات عند البلاغيين، محمد بن علي الصامل، دار كنوز إشبيليا: الرياض، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٨هـ – ٢٠١٧م.

٥٨. الكشاف –مطبوع مع فتوح الغيب–، الزمخشري، تحقيق: مجموعة من الباحثين – حقق الجزء المتعلق بالبحث: د/ لطفي بن محمد الزُّغير، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.

٥٩. المسند، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة: بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

٦٠. المطول شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، تحقيق عبد العزيز بن محمد السالم، وأحمد بن صالح السديس، مكتبة الرشد، الطبعة الأولىٰ: ١٤٤١هـ – ٢٠١٩م.

٦١. معاني النحو، د/ فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: عمان –الأردن، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٠ – ٢٠٠٠م.

٦٢. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د/ محمد حسن جبل، قدم لهذه الطبعة، وضبطها وعلق على بعض مسائلها: عبد الكريم محمد جبل، مركز المربي، الطبعة الرابعة: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م، الاستشارات التربوية والتعليمية.

٦٣. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د/ أحمد مطلوب، الدار العربية للموسوعات: بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٦٤. المغني، ابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٦٥. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار اللباب: تركيا، الطبعة الأولى: ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.

٦٦. مفاتيح للتعامل مع القرآن، د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم: دمشق بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

٦٧. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم: دمشق - الدار الشامية: بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٦٨. المفصل في تفسير القرآن الكريم - تحقيق وتعليق على تفسير الجلالين -، فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى: ٢٠٠٨م.

٦٩. مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل: بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٧٠. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله يوسف الجديع، مركز البحوث الإسلامية: ليدز - بريطانيا، توزيع مؤسسة الريان: بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٧١. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الناشر: الجفان والجابي - قبرص، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧٢. المكي والمدني - دراسة تأصيلية نقدية من أول القرآن الكريم إلى نهاية سورة الإسراء -، عبد الرزاق حسين أحمد، دار ابن عفان: الدمام، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٧٣. المكي والمدني من السور والآيات من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس،

د/ محمد بن عبد العزيز الفالح، دار التدمرية: الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٧٤. ملاك التأويل، أحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق: د/ محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية: بيروت: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٧٥. موسوعة التفسير بالمأثور، إعداد: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، المشرف العلمي: أد/ مساعد بن سليمان الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي: جدة - دار ابن حزم: بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م.

٧٦. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية: بيروت -لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٧٧. النظم الفني للقرآن، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب -دون أي معلومات لمكان وسنة الطباعة-.

٧٨. وحدة النسق في سورة الجمعة، د/ محمد أحمد الجمل، د/ محمد رضا الحوري، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١١م.

المَوْضُوعَات

مستخلص البحث ١٩٩

المقدمة ٢٠١

التمهيد ٢٠٣

«ملابسات النزول» لغة ٢٠٤

«ملابسات النزول» اصطلاحًا ٢٠٤

الدراسات السابقة ٢٠٥

المبحث الأول: ملابسات نزول سورة الجمعة ٢٠٧

أولًا: مدنية السورة ٢٠٧

ثانيًا: تأريخ نزول السورة ٢٠٨

ثالثًا: ترتيب نزول السورة بين السور ٢١١

رابعًا: سبب نزول السورة ٢١٢

المبحث الثاني: الأسرار البلاغية لسورة الجمعة في ضوء ملابسات نزولها ٢١٤

المطلب الأول: براعة الافتتاح ٢١٥

المطلب الثاني: الامتنانُ ببعثة سيد الأنام ﷺ ٢٢١

المطلب الثالث: التعريض بالكلام عن اليهود ٢٣٣

المطلب الرابع: أحكام صلاة الجمعة، والتنبيه على ما وقع فيها ٢٤٤

الخاتمة ٢٥٦

ثبت المصادر والمراجع ٢٥٨

الموضوعات ٢٦٥

مجلة تدبر

TADABBUR MAGAZINE

Refereed Scientific Biannual Journal specialized in the Arbitration and Publication of the Researches and Studies related to the Areas of Meditating on the Holy Qur'an

Issue No. (11) Year 6 / Muharram 1443 AH, corresponding to August 2021

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]

TADABBUR MAGAZINE Index:

- The Quranic Pieces of Spiritual Guidance in the Al-mighty's words: "And (all) the Most Beautiful Names belong to Allah, so call on Him by them..." [Al-A'arâf: 180[
  Dr. Mohammed ali gamil Al-matari
  Dr.yousef mohammed abdo mohammed al-awadhy
- Beings receiving Divine Protection according to the Surah Al-Hijr
  Dr. Hamid bin Adnan Al-Ansari
- Things that nullify Good Deeds according to the Surah Muhammad (Peace be upon him) An objective study
  Dr. Badria Saeed Al-Wadiee
- The General Context of Revelation and Its Effect on the Rhetorical Analysis of the Quranic Verses –The Sura of Al-Jum'ah as a Case Study-
  Dr. Muhammad bin Abdulaziz bin Omar Naseef
- Dispelling and Correcting Misconceptions by Using the Arabic Triliteral Verb "ḥasiba, to think" and its Different Tense-related Conjugations in the Quran
  Dr. Kholoud Muhammad Amin Mahmoud Al-Hawwari
- Report on a scientific thesis entitled: Using Images in the Interpretation of the Noble Quran – Establishing Principles, Evaluation and Correction
  by the Researcher: Dr. Abdullah bin Umar bin Ahmed Al-Umar
- Report on a scientific project entitled: Al-Naba' Al-Atheem Foundation in Makkah
- Engagement with Obscure Qur'anic Verses and Hadith Texts in Classical and Modern Literature

1658-7642